منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2318) السنة التاسعة - الاربعاء (30) تشرين الثاني 2011

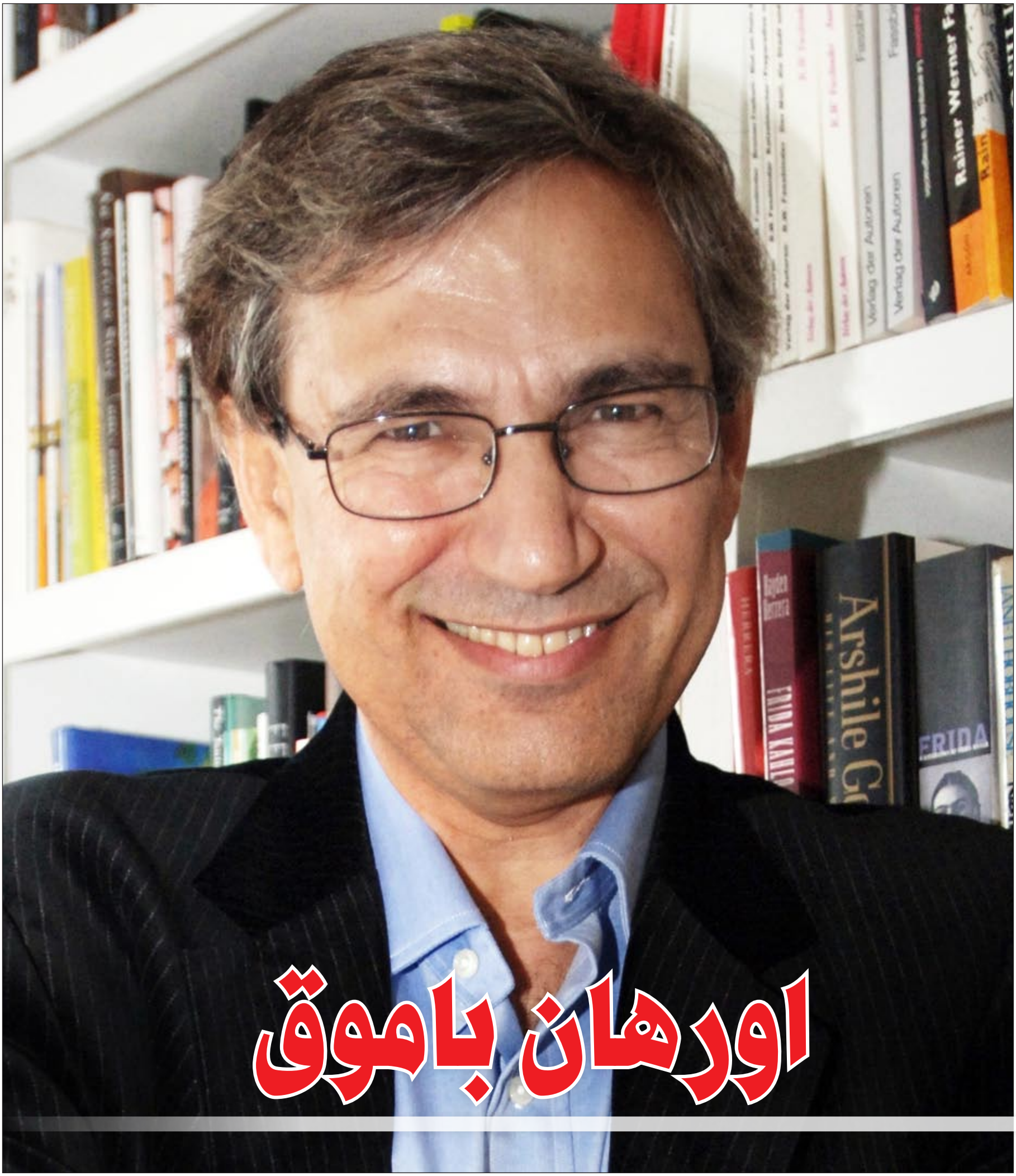

اورهان باموق

مكتبتي التركية

اورهان باموق

كتب أورهان باموق هذه المقالة بناء على طلب من مجلة "دي زايت" الألمانية التي نشرتها بمناسبة الدورة السنوية لمعرض فرانكفورت للكتاب التي خصصت عام ٢٠٠٨ لتركيا. كما نشر الملحق الأسبوعي لجريدة "ميلليت" التركية الأصل التركي لها. في ما يأتي الترجمة الكاملة للمقالة:

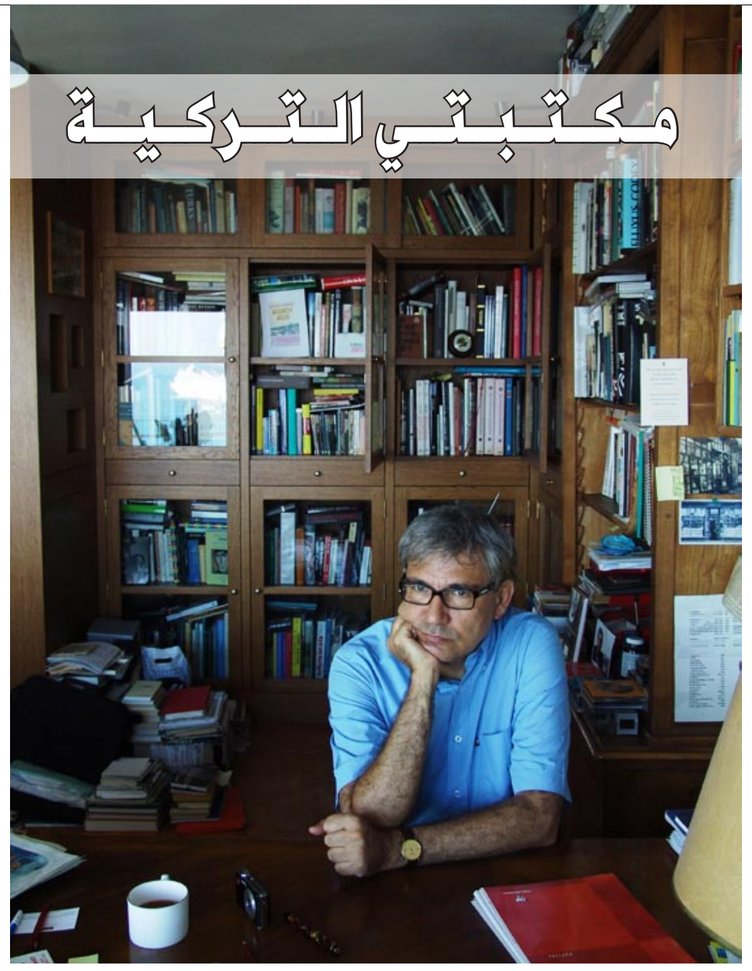

شكلت مكتبة أبي نواة مكتبتي الخاصة. حين بدأتُ، بين السابعة عشرة والثامنة عشرة من عمري، أمضي معظم وقتي في قراءة الكتب، غزوتُ مكتبة أبي في صالون البيت، بقدر غزواتي لبائعي الكتب في اسطنبول. في تلك الفترة إنما بدأتُ أنقل كل كتاب قرأتُه فأعجبني، من مكتبة أبي إلى مكتبتي الخاصة في غرفتي، ليستقر على رفوفها بين مقتنياتي الخاصة من الكتب. كان أبي يشعر بالسرور من إقبال ابنه على قراءة الكتب، فكان يفرح حين يرى بعضاً من كتبه وقد انتقل إلى مكتبتي، وكلما رأى أحد كتبه القديمة في موقعه الجديد على أحد رفوف مكتبتي، علّق عليّ مداعباً: "أووه! تم قبول هذا المجلد أيضاً في المقام الرفيع!".

في عام ١٩٧٠، وكنت في الثامنة عشرة من عمري، بدأتُ ككل فتى تركي يهوى القراءة، أكتب الشعر. كنت أدرس فن العمارة وأشعر بأنني بدأت أفقد متعة الرسم، فكنتُ أكتب قصائد الشعر وأدخن السجائر ليلاً بعيداً عن الأنظار. في تلك الفترة قرأتُ جميع كتب الشعر التركي في مكتبة أبي الذي كان يرغب، في شبابه، أن يصبح شاعراً.

أحببتُ تلك المجموعات الشعرية ذات السماكة الضئيلة والغلف الباهتة لشعراء دخلوا تاريخ الشعر التركي تحت عنواني "تيار التجديد الأول" (جيل الأربعينات والخمسينات) و"تيار التجديد الثاني" (جيل الستينات والسبعينات)، وكلما قرأت تلك المجموعات أحببتُ أن أحذو حذوهم في كتابة الشعر. شعراء التجديد الأول، أورهان ولي ومليح جودت وأوكتاي رفعت، الذين أدخلوا لغة رجل الشارع البسيطة وروحه الساخرة إلى الشعر التركي الحديث، وأداروا الظهر للخطاب الإنشائي للغة الرسمية المنتمية إلى عالم قمعي وسلطوي، نشروا مجموعة شعرية مشتركة عنوانها "الغريب"، فبات هذا العنوان اسماً يُطلَق على التيار الشعري الذي مثّلوه. كان يحدث أحياناً أن يلتقط أبي إحدى المجموعات الشعرية لهؤلاء الشعراء، في طبعتها الأولى، من رفوف مكتبته، ويقرأ علينا بصوت مرتفع وطريقة في الأداء تؤكد أن الأدب هو أحد أكثر ميادين الحياة روعةً، بضع قصائد ساخرة ومرحة تثير فينا البهجة والسعادة.

أما تيار التجديد الثاني الذي شكل استئنافاً للأول، فقد تخلص من الصورة والسرد، وكان أقرب إلى الدادائية والسوريالية حيناً، واتسم حيناً بشيء من الفوضى والتزويق اللغوي اللذين أثارا حماستي. كنت أقرأ أولئك الشعراء (جمال ثريا وتورغوت أويار وإلهان برك، وقد رحلوا جميعاً) الذين كان شعرهم عويصاً على الفهم ومؤثراً معاً، فأحس بسذاجة من يشاهدون لوحة تجريدية فيذهب بهم الظن إلى أنهم قادرون على رسم لوحة مشابهة بأنفسهم. فكنتُ أرغب بكتابة قصيدةٍ فوراً، بل وأجلس أمام الطاولة وأكتبها فعلاً، كذلك الرسام الذي يشاهد لوحة جميلة، أو لوحةً يعتقد أنه فهم كيف يمكن رسمها، فيسرع إلى مرسمه ليحقق ما يرغب به.

الشعر التركي، خارج أعمال التيارين المذكورين، أثار اهتمامي كمسألة ثقافية أكثر منه كشعر، بسبب لغته المتكلفة البعيدة عن لغة الحياة اليومية، إذا استثنينا عدداً قليلاً جداً من القصائد والأبيات الجميلة والمختلفة. ما الذي كان على الشاعر المحلي أن يحميه من التراث المترنح وكيف، وهو تحت وطأة التأثير الساحق للتغريب والحداثة وأوروبا؟ بأيّ طريقة كان لنا أن ندخل في قصيدة حديثة، جماليات شعر الديوان ومراوغاته الأدبية التي ابتكرتها النخب العثمانية بفعل المؤثرات الأدبية الإيرانية، تلك الجماليات والمراوغات التي ما كان في مقدور الأجيال الجديدة فهمها إلا بمساعدة المعاجم وكتب التفسير؟ هذه الأسئلة التي شاع التعبير عنها بعبارة "الاستفادة من التراث"، شغلت أدباء جيلي بقدر ما شغلت أبناء الجيل الذي قبلي. بفضل الشعر العثماني القوي الذي لم يتعرض للمؤثرات الغربية، بفضل تراثه الممتد لمئات السنين، تسنّى لنا مناقشة المشكلات الأدبية والفلسفية، بيسر وراحة، بالانطلاق من الشعر. كان عدم وجود تراث نثري وروائي، يؤدي بالروائيين الأتراك المنشغلين بهواجس المحلية في الشكل والأسلوب، الى الالتفات نحو الشعر. في أوائل السبعينات، حين اندلعت حماستي للشعر ثم انطفأت بالسرعة نفسها، لأقرر بعد ذلك التحول إلى الكتابة الروائية، كان الشعر يعدّ، في تركيا، الأدب الحق، في حين عدّت الرواية جنساً شعبياً ذا قيمة أقل. ليس من الإجحاف القول إن السنوات الخمس والثلاثين المنقضية، منذ ذلك الوقت، شهدت ارتفاعاً في اعتبار الرواية وأهميتها، مقابل خسارة الشعر للأهمية التي كان يتمتع بها. ففي غضون الفترة المذكورة ازداد عدد قراء الأدب وتوسعت صناعة الكتاب بسرعة مدهشة.

حين قررت أن أصبح كاتباً روائياً، كان المفهوم الأدبي المهيمن في ميداني الشعر والرواية معاً، لا يولي اهتمامه لتعبير الفرد المنعزل عن نفسه وروحه وطرافة تجربته الخاصة، بقدر اهتمامه بمساهمة الكاتب المنتمي إلى فريق أو جماعة أو مجموعة من الزملاء أو الرفاق، في تحقيق يوتوبيا اجتماعية ما (الحداثة أو الاشتراكية أو الإسلام أو القومية أو النزعة الجمهورية العلمانية، إلخ...). إن رائز الاستفادة من التاريخ والتراث لم يشكل قط مشكلة بالنسبة الى الكتاب الخلّاقين في بحثهم عن الجنس الأدبي الأكثر ملاءمة بالنسبة اليهم. انصب الاهتمام، بدلاً من ذلك، على حلم خلق مجتمع المستقبل السعيد والمتآلف، بل خلق الشعب أو الأمة، بالعمل يداً بيد مع الدولة. أفكر أحياناً أن الأدب الحداثي المتفائل، في شقيه "الجمهوري – العلماني – التنويري" و"المساواتي – الاشتراكي" سواء بسواء، قد اشتطّ في تركيز نظره على المستقبل إلى درجة فقد فيها القدرة على رؤية روح التغيرات والتحولات الجارية، طيلة القرن الماضي، في أزقة اسطنبول وبيوتها. لطالما بدا لي أن الكتّاب الذين صوّروا الحياة التي نعيش بدقة أكثر، ليسوا أولئك الذين اهتموا بحماسة بكيفية وصول تركيا إلى مستقبل مشرق، بل صنفان من الكتّاب، أولهما أولئك الذين عبّروا عن الحنين إلى الماضي، إلى ثقافة طواها الزمان، كأحمد حمدي تانبنار وعبد الحق شناصي هسار، وثانيهما أولئك الذين أحبّوا شعرية أزقة اسطنبول وحيويتها، من غير أحكام مسبقة، كأحمد راسم وسعيد فائق وعزيز نيسين.

بعد انطلاق رحلة التغريب والحداثة، تمثلت المشكلة الرئيسية، لا في الأدب التركي وحده، بل بالنسبة الى جميع الآداب غير الغربية في العالم، في صعوبة التوفيق بين الأحلام المستقبلية وألوان اللحظة الراهنة، بين الحلم بإنسان ودولة حديثين، ومتع العيش في عالم تقليدي موجود في الواقع. الكتّاب الذين حلموا بمستقبل راديكالي، كثيراً ما انخرطوا في معارك سياسية وصراعات من أجل السلطة، أودت بهم إلى السجون، فاتسمت نبراتهم وملاحظاتهم بالقسوة والمرارة.

كانت في مكتبة أبي المجموعات الشعرية المبكرة لناظم حكمت التي صدرت في الثلاثينات، قبل اعتقال الشاعر. بقدر ما تأثرتُ بنبرة الغضب والأمل والإيمان بمستقبل مشرق، المبثوثة في تلك القصائد، كما بالتجديد الشكلي فيها المستوحى من المستقبليين الروس، تأثرتُ أيضاً بالشقاء الذي كابده الشاعر في السجون، وبالحياة داخل تلك السجون التي قرأتُ عنها في مذكرات ورسائل كتّاب واقعيين شاركوا ناظم حكمت فترات من سجنه كأورهان كمال وكمال طاهر. إن كتب مذكرات المثقفين والصحافيين الأتراك ممن تعرضوا للسجن، والروايات والقصص التي تدور حوادثها في السجون، تشكل مكتبةً قائمة بذاتها. لفترة من الفترات قرأتُ أدب السجون بكثافة جعلتني أعرف عن الحياة اليومية في المهاجع، وتلك اللغة الخاصة بالسجناء التي أحببتها كثيراً، وقواعد "الفتونة" داخل المهاجع، كما لو أنني خبرتُ السجن بنفسي. بدا لي، في تلك الفترة، كما لو كانت حياة الكاتب تجري في بيت يحرسه البوليس بصورة دائمة، ويخضع فيها للمراقبة الدائمة من الشرطة السرية، ويتم التنصت على مكالماته الهاتفية، ولا يستطيع الحصول على جواز سفر، ويكتب إلى حبيبته من سجنه رسائل وقصائد مؤثرة. هذه الحياة التي عرفت بها من الكتب لم أتشوق البتة لأحياها بنفسي، لكني وجدتها رومنطيقية. حين كابدتُ مشقات مماثلة بصورة طفيفة، بعد ثلاثين عاماً، وجدتُ العزاء في أن وضعي أقل مشقة بكثير من وضع أولئك الكتّاب الذين قرأت عنهم، في سنوات شبابي، برعب مفهوم ورومنطيقية غريبة.

المفهوم التنويري والنفعي الذي يرى في الكتب ما يعدّنا لخوض غمار الحياة ومشقاتها، لم أتحرر منه، للأسف، إلا قليلاً. ربما يعود ذلك إلى أن سير حياة الكتّاب في تركيا أثبتت صحته على الدوام. والسبب الأهم هو أنه لم يكن، في تركيا في تلك الفترة، مكتبات كبيرة، يمكن المرء أن يعثر فيها بسهولة على أي كتاب يبحث عنه. ثمة وراء حلم المكتبة التي تخيلها بورخيس، حيث يكتسب كل كتاب فيها طابعاً سحرياً ملغزاً، فتكتسي المكتبة في مجموعها بحالة من الشعرية واللامحدودية الميتافيزيقية المناسبتين لفوضى العالم المحسوس، مكتبات ضخمة فيها أعداد هائلة من الكتب لا يمكن عدّها أو قراءتها. كان بورخيس مديراً لمكتبة من هذا النوع في بوينس أيريس. أما في اسطنبول وفي تركيا، فلم يكن ثمة مكتبة واحدة من هذا النوع مفتوحة للمهتمين، في سنوات شبابي. أما الكتب الأجنبية فلم توجد في أي مكتبة من المكتبات العامة في تركيا. إذا أردتُ أن أعرف كل شيء وأصبح شخصاً ذا معارف واسعة وعميقة، وإذا أردتُ التحرر من الحدود الخانقة للأدب القومي الذي تحميه الجماعات والأطر الصداقية والديبلوماسية الأدبية والمحظورات، كان عليَّ أن أبني بنفسي مكتبتي الخاصة الكبيرة.

في الفترة الفاصلة بين ١٩٧٠ و١٩٩٠، بات شغلي الأهم، بعد الكتابة، هو شراء الكتب ليتسنى لي بناء مكتبة تضم جميع الكتب المهمة والمفيدة. كان أبي يمنحني مصروف جيب جيداً. منذ الثامنة عشرة من عمري وأنا أزور مرة في الأسبوع زقاق الصحافين في منطقة بيازيد في اسطنبول. كنتُ أمضي ساعات وأياماً في ذلك الزقاق حيث تصطف على الجانبين مكتبات صغيرة امتلأت عن آخرها بأعمدة من كتب لم يستطيعوا تصنيفها، وتتم تدفئتها بصعوبة بوساطة مدافئ كهربائية صغيرة، ويزدحم ببشر ينم مظهرهم عن الفقر الشديد، سواء في ذلك أصحاب دكاكين الكتب أو

بائعو البسطات أو الزوار العاديون من هواة اقتناء الكتب. كنتُ أدخل أحد تلك الدكاكين التي تبيع الكتب المستعملة، وأتفحص جميع الرفوف والكتب المعروضة عليها، فأختار كتاباً أشتريه بعد مساومة على ثمنه مع البائع. قد يكون الكتاب الذي اخترته كتاباً تاريخياً يتحدث عن العلاقات العثمانية – الأسوجية في القرن الثامن عشر، أو مذكرات رئيس الأطباء في مشفى باكر كوي للأمراض العقلية، أو شهادة صحافي عن انقلاب عسكري انتهى إلى الفشل، أو كتاباً في فن العمارة يتحدث عن المباني العثمانية في مقدونيا، أو مختارات تركية من ملاحظات سائح ألماني زار اسطنبول في القرن السابع عشر، أو أفكار أستاذ جامعي في كلية الطب في جامعة تشابا حول الميول الفصامية والعصاب الوسواسي، أو ديوان شاعر عثماني نسيه الجميع مترجماً إلى التركية الحديثة ومزوداً شرحاً، أو بروشوراً دعاوياً مصوراً بالأسود والأبيض عن إنجازات محافظة اسطنبول في الأربعينات في مجال تعبيد الشوارع وتشييد المباني وإقامة الحدائق. في البدايات الأولى كنتُ أجمع كل الأعمال الأدبية الكلاسيكية العالمية والتركية (الأصح القول عن هذه الأخيرة "الكتب المهمة"). أما الكتب الأخرى، فقد اعتقدتُ أنني لا بد أن أقرأها ذات يوم، مثلها مثل الأعمال الكلاسيكية. حتى أمي القلقة عليَّ من كثرة القراءة، كانت تلاحظ أن عدد ما أشتريه من الكتب يفوق كثيراً قدرتي على قراءتها، فتقول لي متأففة: "لا تذهب لشراء المزيد قبل الانتهاء من قراءة ما اشتريته هذه المرة على الأقل".

لم أكن أشتري الكتب كهاو لجمعها، بل كمن يريد قراءتها جميعاً في مقبل الأيام ليتمكن من فهم معنى العالم وسبب الفقر والمشكلات العويصة في تركيا. في العشرينات من عمري لم أكن قادراً على إعطاء جواب شاف لزملائي ممن كانوا يزورونني في بيت ذويّ ويلاحظون امتلاء غرفه المطرد بالكتب، فيسألونني عن سبب ولعي باقتنائها. ترى هل كنتُ مهتماً حقاً وأملك من الفضول ما يكفي لأقرأ كامل صفحات كتاب يتحدث عن رمزية البيت في "حكايات غوموشهانة الخرافية"، أو خلفيات تمرد أدهم الشركسي على أتاتورك، أو الجرائم السياسية في عهد المشروطية الثانية، أو قصة الببغاء التي أرسلها السفير العثماني في لندن إلى السلطان عبد الحميد الثاني في اسطنبول بناء على طلب هذا الأخير، أو نماذج رسائل الغرام من أجل الخجولين، أو تاريخ استيراد القرميد المرسيلي إلى تركيا، أو المذكرات السياسية للطبيب الذي أنشأ أول مشفى للسل في تركيا، أو تاريخ الفن الغربي في كتاب من مئة وخمسين صفحة نشر في الثلاثينات، أو الملاحظات المكتوبة التي أملاها مفوض الشرطة على طلاب مدرسة الشرطة حول وسائل التعامل مع حالات صغيرة من خرق القانون في الشارع كالسلب والنصب وإطلاق الشتائم، أو مذكرات رئيس جمهورية سابق في ستة مجلدات محشوة بالوثائق، أو أثر أخلاقيات طوائف الحرف في الحقبة العثمانية على المشاغل الحديثة الصغيرة، أو تاريخ الطريقة الجراحية وأسرارها ومشايخها، أو مذكرات رسام منسي في باريس الثلاثينات، أو الألاعيب التي كان التجار يلجأون إليها لرفع أسعار البندق، أو النقد العنيف الصادر عن حركة ماركسية تركية مناصرة للسوفيات ضد حركة مناصرة للصين وألبانيا في خمسمئة صفحة، أو التحولات التي تعرضت لها مدينة أريلي بعد بناء مصانع الفولاذ فيها، أو كتاباً للأطفال بعنوان "مئة من أعلام الترك"، أو قصة حريق آك سرايا في اسطنبول، أو مختارات مما نشره صحافي طواه النسيان تماماً، في زاويته اليومية في فترة ما بين الحربين العالميتين، أو تاريخ ألفي عام لمدينة صغيرة في الأناضول، قد لا أتمكن من العثور على موقعها على الخريطة من النظرة الأولى، حشر في كتاب من مئتي صفحة، أو مزاعم معلّم مدرسة متقاعد توصل إلى معرفة قاتل كينيدي من قراءته للصحف التركية، وهو الذي لا يتقن الإنكليزية؟ في السنوات اللاحقة لن أستخف بهذه الأسئلة ولا بالسؤال الذي سأواجهه بكثرة، عما إذا كنت قرأت كل تلك الكتب، وسوف أجيب قائلاً: "نعم، حتى إذا لم أقرأها جميعاً، لا بد أن تنفع في شيء ما". كما يمكن الفهم من هذه الطريقة الجدية في الجواب، كانت علاقتي بالكتب، إبان شبابي، محدودة بنظرة شخص وضعاني متفائل لن يرحمه الزمان، يعتقد أنه سيمتلك العالم بوساطة المعرفة. كنت أعتقد أن من المحتمل أن أستخدم ما أراكمه من معلومات في إحدى رواياتي. كان بي شيء من دأب البطل العصامي لرواية "الغثيان" لجان بول سارتر، ذاك الذي يقرأ جميع الكتب في المكتبة العامة في إحدى المدن، وشيء من بيتر كلاين، بطل رواية "العمى" لإلياس كانيتي، ذاك الذي يفخر بكتبه ويستمد القوة منها كقائد عسكري يتباهى بجيشه. لم تكن فكرة المكتبة على الطريقة البورخيسية بالنسبة اليَّ، حلماً ميتافيزيقياً يوحي بلامحدودية العالم، بقدر ما كانت تلك المكتبة بالذات التي راكمتها كتاباً كتاباً في بيتي في اسطنبول. كنت أقتني بلا تردد كتاباً عن الأسس القانونية للاقتصاد الزراعي في الامبراطورية العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. من هذا الكتاب إنما عرفت بوجود النمور في الأناضول، في ذلك الزمان، وأنا أقرأ فيه عن طريقة تحديد الضرائب على فراء النمور. وعرفت من المجلدات الثقيلة التي تضم رسائل الشاعر التركي المكافح الوطني الرومنطيقي ذي النبرة التربوية نامق كمال (فيكتور هوغو الأدب التركي) التي كتبها من منافيه العديدة، أن شاعرنا الأسطوري هذا كان ذا لسان لاذع شتّام، وشخصية لا يستغنى عنها في الكتب المدرسية والنكات البذيئة للتلاميذ. حين كنت أقع بالمصادفة على كتاب مذكرات سياسية ممتع لنائب سابق دخل السجن، أو كتاب يتحدث فيه موظف شركة تأمينات عن أغرب ما صادفه في حياته المهنية من حوادث السير أو الحرائق، أو كتاب مذكرات ديبلوماسي متفرنج يصادف أن ابنته زميلتي في المدرسة، لم أكن أتردد لحظة واحدة في شرائها. كلما ازداد تعلقي بالكتب، خسرت من حياتي شيئاً، وكلما أدركت خسارتي هذه، انتقمتُ لحياتي الضائعة بشراء مزيد من الكتب. الآن، بعد مرور سنوات طويلة، أدرك الساعات الممتعة التي أمضيتها في تلك المكتبات الباردة، وأنا أتجاذب أطراف الحديث مع البائع الذي يقدّم اليَّ كأساً من الشاي، أو أنقب في أعمدة الكتب العتيقة المغبرة.

بعدما أمضيت نحو عشر سنين في زقاق الصحافين حيث بائعو الكتب المستعملة، حيث أشبع فضولي من المشاهدة والتنقيب، أي في أواخر عقد السبعينات، وصلت إلى اقتناع مفاده أنني رأيت جميع الكتب المنشورة بالأحرف اللاتينية، منذ قيام الجمهورية إلى حينه، وتصفحتها. فقد كنت أفترض أحياناً أن ما نشر بالتركية، في غضون خمسين سنة، بعدما انتقل الشعب بأسره، في عام ١٩٢٨ بناء على رغبة أتاتورك، من الأبجدية العربية إلى الأحرف اللاتينية، لا يتجاوز في مجموعه خمسين ألف كتاب. من المحتمل أن هذا الرقم تجاوز بالكاد المئة ألف، في عام ٢٠٠٨. لعل الخطة السرية الكامنة وراء جشعي في شراء الكتب، تمثلت في الرغبة بجمع كل تلك الكتب في مكتبتي في البيت. لكني كنت أقتني الكتب غالباً بحافز داخلي ابن اللحظة. كان ثمة شبه بين شرائي للكتب، كتاباً بعد كتاب، ومن يبني بيتاً، حجراً فوق حجر.

في بداية الثمانينات، رأيت من يفعلون مثلي، سواء عند بائعي الكتب العتيقة أو في المكتبات الكبيرة في اسطنبول. إني أتحدث عن أولئك الذين يمرون بالمكتبة في الخامسة أو السادسة مساءً، ويسألون البائع عن أحدث ما وصل إليه من كتب، ويتصفحون جميع الكتب الجديدة التي يعرضها عليهم. في الثمانينات كان ينشر في تركيا كل سنة نحو ثلاثة آلاف كتاب وسطياً، ومن المحتمل أن هذا الرقم قد ارتفع اليوم إلى ثلاثة أمثاله. وكان نحو نصف تلك الكتب التي رأيت القسم الأعظم منها، ترجمات من اللغات الأخرى. لم يكن يستورد الكثير من الكتب من الخارج، فكنت أسعى للاطلاع على تطورات الآداب العالمية من خلال تلك الترجمات، وأكثرها يفتقر إلى العناية ويتم إنجازها على عجل.

في السبعينات كانت المجلدات التاريخية السميكة التي تعنى بالتنقيب في جذور تخلف تركيا وفقرها وأزماتها السياسية والاجتماعية، هي النجوم المتألقة على رفوف المكتبات. كتب التاريخ هذه الحديثة والطموحة، المكتوبة بلغة مشحونة بالغضب، كانت بخلاف كتب التاريخ العثماني القديمة – وكان يعاد طباعتها مجدداً بالأبجدية التركية الحديثة، وقد اشتريتها جميعاً –، لا تحمّلنا كثيراً مسؤولية الكوارث التي ألّمت بنا، بل تفسر فقرنا وجهلنا وتخلفنا إما بفعل قوى خارجية وإما بفعل حفنة من الأشرار الفاسدين بين ظهرانينا. لعل تلك الكتب كانت تجد جمهوراً كبيراً من القراء والمحبين لهذا السبب بالذات. اشتريت أيضاً جميع كتب التاريخ والمذكرات والروايات التي تبرهن على وجود سر أو مؤامرة دنيئة أو لعبة مدبرة من القوى العالمية وراء الكثير من الانقلابات العسكرية في التاريخ القريب، والحركات السياسية، والهزائم العسكرية في السنوات الأخيرة من الامبراطورية العثمانية، والاغتيالات السياسية التي لها أول وليس لها آخر. اشتريت جميع الكتب التي كتبها معلمون متقاعدون عن تواريخ المدن، وإما نشروها بأنفسهم وإما نشرتها لهم البلديات، وكتب مذكرات لأطباء حالمين أو مهندسين أو جباة ضرائب أو ديبلوماسيين أو سياسيين، وقصص حياة نجوم السينما ونجماتها، وكتباً عن الطرق الصوفية ومشايخها، والمجلدات التي تفشي أسرار الماسونية وأعلامها، وجميع الكتب التي فيها شيء من المرح والحياة والواقع، أو شيء من تركيا على الأقل.

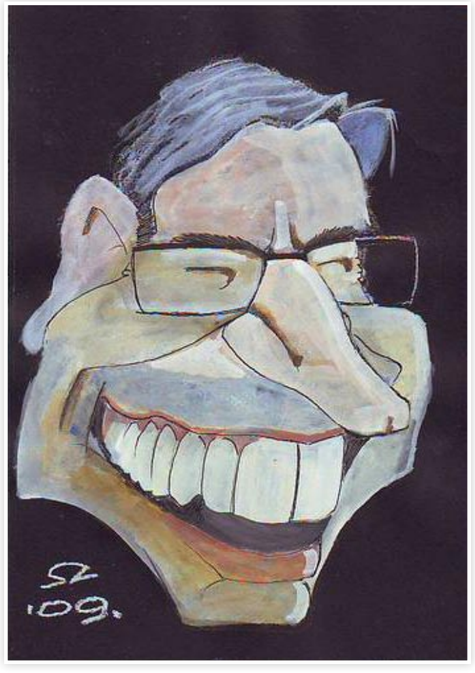

في سنوات طفولتي قرأتُ بحب شديد الكتب التي كتبها عن أتاتورك أصدقاؤه المقربون. بخلاف هذه الكتب التي ألّفها أشخاص عرفوا أتاتورك عن قرب وأحبّوه، تحولت صورته لدى الأجيال اللاحقة، بفعل المحظورات التي منعتنا من رؤية الجوانب الإنسانية في شخصيته والكتابة عنها، إلى صورة إنسان فائق وسلطوي، وكثيراً ما تمت إساءة استخدام اسمه لشرعنة ضروب القمع والمحظورات السياسية. من المحال اليوم، بسبب الممنوعات المطبقة في تركيا، أن يتحدث المرء عن أتاتورك، في إحدى الروايات، كشخص طبيعي، أو يؤلف سيرةً مقنعة عنه، من غير أن يحال على القضاء. مع ذلك تؤلَّف عنه مئات الكتب سنوياً. ربما لأن الممنوعات تبسّط الموضوع العويص والمتشابك فتريح المؤلف، كما هي الحال في الكتب التي تتناول الإسلام.

في منتصف السبعينات، حين تخليتُ عن أحلامي المتعلقة بالرسم والهندسة المعمارية وقررت احتراف الكتابة الروائية، كان ينشر في تركيا ما بين أربعين وخمسين رواية في السنة. كنت أراها جميعاً، وأشتري القسم الأكبر منها لعلّها تنفع ذات يوم، وأتصفحها قليلاً من أجل ما تنطوي عليه من تفاصيل الحياة في القرية، ومشاهد إنسانية من الريف، وشرائح من الحياة في اسطنبول وتركيا، أكثر من اهتمامي بقيمتها الأدبية. الناقد الشهير في الخمسينات نور الله أتاج الذي كان يدافع، من جهة أولى بالصوت العالي، عن محاكاتنا للحضارة الغربية، وفي الأخص الثقافة الفرنسية، ولا يتمالك نفسه، من جهة أخرى، من الاستهزاء بما يقترفه أولئك الكتّاب ممن ينقصهم التراكم الثقافي من أخطاء، حين يتنطحون لمحاكاة الفرنسيين، كتب يقول إنه علينا، في بلد مثل تركيا، شراء الكتب التي تنشر دعماً للكاتب والناشر. وقد عملت بنصيحته هذه.

وأنا أقرأ تلك الكتب أو أتصفحها، كنتُ أحس، من جهة أولى، بمتعة الانتماء إلى ثقافة وتاريخ، وأفكر، من جهة ثانية، في الكتب التي سأكتبها في مقبل الأيام، فأشعر بالسعادة. لكنني كنتُ في بعض الأحيان، أستسلم لتشاؤم وكآبة خطيرين. كانت أخطاء الطباعة الكثيرة في أحد الكتب، وعدم انتباه كاتبه وناشره إليها، يشتتان تركيزي، ويثير حزني كتاب آخر لأن موضوعه الغني الذي يمكن معالجته بصورة حاذقة، تم قتله بسبب تسرع الكاتب وغضبه وحماسته. على كل حال، كنت أجد الموضوع على شيء من السخف ومثيراً للشفقة وكنت أشعر بالحزن لأن هذا الكتاب السخيف والبخس لاقى استحسان القراء، أو لأن ذاك الكتاب اللافت والساحر لم يلحظه أحد.

كانت هذه المشاعر جميعاً تثير فيَّ قلقاً أكبر وأعمق، فتتضخم في ذهني وتتكاثف غيمة الريبة المدمرة التي يصارعها جميع المتعلمين في البلدان الواقعة خارج حدود الغرب، طيلة أعمارهم: ترى ما أهمية معرفة وجود النمور في الأناضول في القرنين الخامس عشر والسادس عشر؟ أو ما معنى معرفة أثر الأدب الهندي في شعر آصف خالد تشلبي الذي يكاد القارئ التركي نفسه لا يعرفه معرفة جيدة؟ ولم أر أهمية تذكر في معرفة أن وراء حوادث السادس والسابع من أيلول ١٩٥٥، حين اعتدى الرعاع على بيوت الأقليتين الأرثوذكسية واليهودية ومحالهم التجارية في اسطنبول ونهبوها، وقتلوا القساوسة، أجهزة الاستخبارات السرية التركية، كما الإنكليز الذين عارضوا تبعية قبرص التامة لليونان. كذلك لم أر أي أهمية في قراءة الحديث الذي تبادله أتاتورك مع شاه إيران أثناء الجولة في مضيق البوسفور. كنت أشعر بخواء الجهود التي بذلها أولئك الذين كتبوا، في مواضيع من هذا النوع، أبحاثاً أو روايات أو كتب تاريخ. كنتُ في فترات التشاؤم، أشعر بالقلق على "أهمية" ما أحتفظ به في مكتبتي بنجاح من تفاصيل تاريخ بطوله وثقافة ولغة بكاملهما، مثلي في ذلك مثل بطل روايتي الثانية فاروق، ذلك المؤرخ الذي قرأ في أرشيفات الدولة العثمانية وثائق تغطي مئات السنوات، ويحفظ جميع الوقائع في ذهنه، لكنه لا يقيم أي علاقات في ما بينها. ما هي أهمية أن نعرف اليوم من الذي أشعل حريق إزمير الكبير؟ وكان يبدو لي أن الأسباب الكامنة وراء الانقلاب العسكري في ٢٧ أيار ١٩٦٠، أو تأسيس الحزب الديموقراطي في أعقاب الحرب العالمية الثانية، لا تثير اهتمام أحد سوى بضعة أشخاص من أمثالي. ترى أكان ذلك بسبب فرط التسييس في الثقافة التركية، أم لأن الحياة في البلد كان يعبّر عنها غالباً من خلال السياسة، أم أن الشعور بالريفية أو الهامشية بالقياس إلى المركز الغربي، كان يقلل من شأن المكتبة القومية في نظر أبناء البلد؟

ثمة فكرة كثيراً ما أقلقت راحتي مع شعور بالخواء والبؤس، مفادها أن الوقائع والظواهر المذكورة في الكتب التي جمعتها بإخلاص في غرف بيتي، لا تتمتع بما يرضيني من أهمية بالنسبة الى البلدان الأخرى خارج تركيا. وإذا كانت فكرة أنني أعيش في مكان على هذه المسافة الشاسعة من مركز العالم، أقلقت راحتي أحياناً، في العشرينات من عمري، فإن هذا الشعور لم يحل دون حبي الشديد لمكتبتي. حين سافرت إلى الولايات المتحدة للمرة الأولى، في الثلاثينات من عمري، ورأيت غنى المكتبات الأخرى وغنى الثقافة العالمية، آلمتني معرفة ضآلة ما يعرفه العالم من المكتبة والثقافة التركيتين. منحني هذا الألم، في الوقت نفسه، القدرة على التمييز، ككاتب روائي، بين ما هو أساسي وما هو عارض في الثقافة وفي مكتبتي، فكان تنبيهاً لي لأنظر بعمق أكثر إلى مكتبتي والحياة معاً.

عن التركية: بكر صدقي
النهار ٢٠٠٦

اسطنبول- باموق: سيرة حياة ومدينة

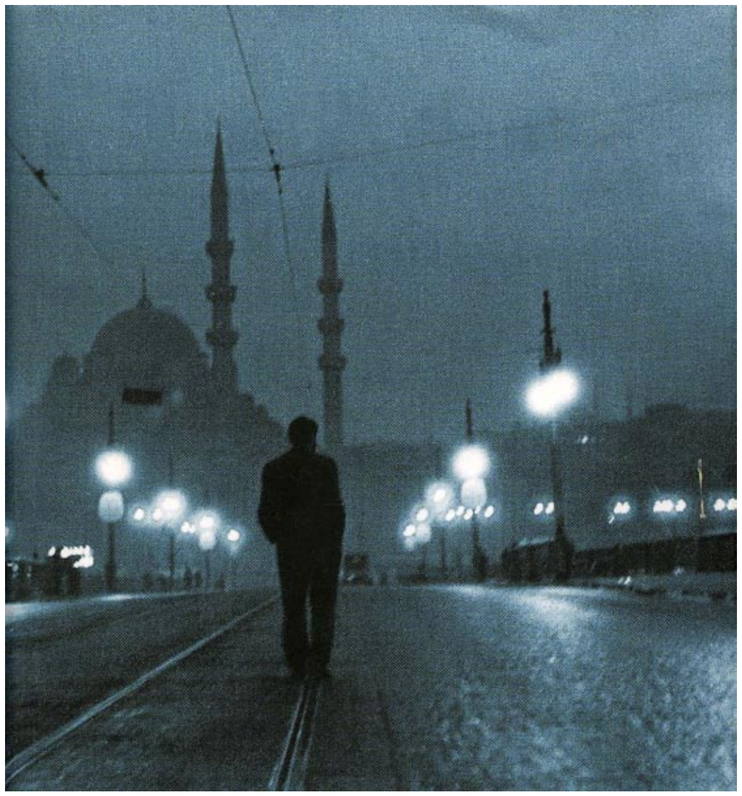

سعد محمد رحيم

أطلق أورهان باموق على الكتاب الذي خصصه للحديث عن مدينته وعلاقته بها اسم (اسطنبول)×. وهذا العنوان بدءاً لا يكشف لنا جنس الكتاب الذي بين أيدينا. هل سيصطحبنا المؤلف في دهاليز التاريخ، أم سيحكي عن اسطنبول المعاصرة؟ أم سيتنقل بين الماضي كما قرأ عنه ووجد آثاره، وبين الحاضر كما عاشه وخبره؟ أهو كتاب في الجغرافيا مشرّبة بعلوم الطبيعة، أم في الأنثربولوجيا؟ أم تراه سيجعل من المدينة مناسبة للخوض في إشكالية العلاقة بين الشرق والغرب؟ أو ربما سيرسم بالكلمات لوحة عن المدينة كما صُوِّرت عبر عيون الرحّالة والمستشرقين في غضون بضع عشرات، أو مئات من السنين؟.

ينطوي العنوان على الرغم من بعض تجريده وكونه مباشراً (حافياً) على شيء من الغموض، أو قل على عنصرٍ مخاتلة. لكنه في النهاية يمنحنا وعوداً خصبة، لاسيما مع اسم مؤلفه أورهان باموق الحائز على جائزة نوبل للآداب ٢٠٠٦.

وحين ننتهي من قراءة الصفحات الأولى يتهيأ لنا أن باموق أسقط عامداً كلمة (أنا) التي من الممكن أن تكون معطوفة على اسم المدينة لأسباب قد لا تتعلق بالتواضع، وإنما لرغبته في أن يحلّق في فضاء الكتابة بحرية تتجاوز اشتراطات الأنا وحدودها. والكتاب في جانب منه إذن سيرة مدينة، وفي جانب آخر سيرة أنا الفنان وصورته في إطار الصورة الشاملة والمجسّمة للمدينة. وقد تنبه المترجم الأستاذ عبد القادر عبد اللي لهذه الحقيقة فأضاف كلمتي (الذكريات والمدينة) على العنوان الأصلي (اسطنبول) ليوضح للقارئ طبيعة الكتاب وتوجّه الكاتب.

نرصد اسطنبول بعيني أورهان باموق الطفل لنعيش معه متعة الاكتشاف الأول للأشياء.. الشغف بالاكتشاف مع ما يستدعيه من فضول وبراءة ودهشة. ولأن أورهان الطفل كان يفصح عن موهبة مبكرة بالرسم فقد طغى حس الفنان على رؤيته، حيث العالم يتجلى بالأسود والأبيض كما لو أننا إزاء شريط سينمائي قديم، أو في فضاء حلم. وباسترساله في تدوين سردية المدينة سينفض باموق الغبار عن بعض من أرشيفها، لا لينقل لنا شيئاً من عبق التاريخ وحسب، وإنما ليعطينا صورة بانورامية مركّبة عنها، هي مجموع ما التقطه بعين الفنان والباحث المدققة.

كان في ذهن أورهان الطفل أورهان آخر، التوأم والقرين، المستنسخ الذي يشبهه ويعيش في بيتٍ يشبه البيت الذي يعيش فيه هو، تماماً. وفي زقاق آخر من اسطنبول. وكان يغادر نفسه ليحل محل ذلك الآخر الذي يوفر له فسحة واسعة من الحرية افتقر إليها هو.. ألا يعكس هذا قوة خيال استثنائي وعقل غض لمّاح، وروح متحفزة، تبغي التحرر من إسار المكان ومواضعاته، والانطلاق خارجاً، بكل ما في الخارج من ممكنات ومفاجآت ووعود؟.

ولم يكن السبب في هذا الهرب تعاسته الذاتية، مثلما يخبرنا، بل "لأن الحياة، وصالون البيت المتحفي وممراته وسُجّاده (أكره السُجّاد) وجمع الرجال الناضجين الفضوليين لحل الأحاجيِ الرياضية كانت تبعث على الضيق كثيراً، ثم زيادة الظواهر اللامعنوية، واللاحب، واللاتصوير، واللاأدب (اللاحكائية) (أنكروا هذا مع تقدمهم في السن) وامتلاء البيت بالأغراض وظلمته وبعثه على الضيق".

إذن، يحب أورهان باموقٍ مدينته، غير أنه يضيق ذرعاً بها أحياناً.. تُدهشه مناظرها الجميلة والأسرة، وآثارها المعرّضة للتلف والحرائق، وتسبب له الملل أيضاً. وشرطه الإنساني المتبدل، بفعل تبدل الظروف والأحوال يفضي إلى تلوّن مشاعره، وتحولها من السار والمفرح إلى الحزين والكئيب، وبذا يتقلب من الرضا والشاعرية إلى الحنق والغضب والسخرية. لكن، في نهاية المطاف، لا يمكن أن ينجز مثل هذا الكتاب، عن مدينة ما، سوى عاشق كبير لها.

يقر باموق بأن الشعور الذي منحته إياه اسطنبول هو الحزن، هذه المدينة التي لا تضاهي، الآن، بأية حال أية مدينة أوربية كبيرة، بعد الهزيمة. وبقي يخيل إليه بأنه يعيش في مدينة ريفية كبيرة وفقيرة، فقدت من جانب آخر تعدديتها اللغوية والعرقية وأيامها المظفرة والطنانة، نتيجة سياسات التعصب القومي.. يقول: "وفرغت المدينة وتحولت إلى مكان خاو أحادي الصوت وأحادي اللغة". فيما التأرجح بين التغريب والحياة التقليديةٍ جعلت من كل شيء في اسطنبول ناقصاً وغير كاف وغير مكتمل. لعلّه لهذا سيطرت عليه فكرةً ـ مثلما حصل مع بقية الاسطنبوليين ـ بأنه ليس هنا (في مكانه) بالكامل، وليس غريباً فيه بالكامل.

لمدة طويلة، رغب أورهان باموق أن يكونٍ رساماً.. هذا الولع جعله يتجول متسكعاً في أحياء اسطنبول وشوارعها وأسواقها وحاناتها وحدائقها ومقابرها، ويمعن النظر في البوسفور (أمواجه وأنواره ومراكبه) فامتلك دقة الملاحظة، والقدرة على تشرّب التفاصيل المرئية وتمثلها. فتكونت عنده ذاكرة بصرية غنية ومرهفة، مفعمة بخيال خلّاق ستعينه فيما بعد حين يودع الرسم ويمتهن الكتابة..

خاض باموق صراعاً ضارياً مع نفسه وعائلته، بالأحرى مع أمه، حول خياراته في الحياة (هل سيكمل دراسته في العمارة ويحصل على الشهادة الجامعية، أم سيتفرغ للرسم؟) وقد حذرته أمه بغضب، وإلىٍ حد الاستفزاز من عواقب أن يصبح رساماً في بلد مثل تركيا لا تقدِّر الفنانين كما هو الأمر في أوروبا، وإنما تستهين بهم وتحقّرهم. وكان هذا الصراع يأخذ شكل شجار يومي فيهرب الشاب ليتسكع في الأزقة شبه المعتمة أو على ضفاف البوسفور، أو يرتاد الحانات، يدخن ويشرب الخمر. وأخيراً، ذات يوم، وهو في العشرين من عمره، سيفاجئ أمه، وربما ذاته أيضاً، بهذه العبارة الحاسمة: "لن أغدو رساماً.. سأكون كاتباً".

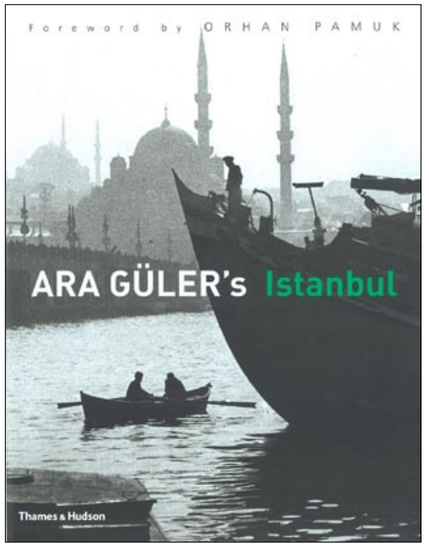

حتى وهو يكتب عن نفسه (طفولته وعائلته ومدرسته وقصة حبه الأول) كانت اسطنبول تفرض حضورها، لاٍ خلفية للحدث فحسب، بل إطاراً شاملاً يتضمن تفاصيل الأحداث المتتابعة وكأنها جزئيات من مشهد المدينة الكبير. وهذا الكتاب من زاوية ما، ليس سوى تطور نظرة فنان إلى العالم مذ يفتح عينيه، ويجمع في حافظته من خلالهما كل ما يدور حوله، وحتى مرحلة تجاوزه سن المراهقة وبلوغه العشرين من العمر. وهكذا كتب عن اسطنبول، كما لو أنها العالم، أو أنها المدينة الوحيدة في هذا العالم.. ليست هناك إشارات قوية وواضحة إلى مدن أخرى، أو مقارنات من أي نوع معها. وحتى حين يتكلم عن رحالة ومغامرين، يُظهرهم كما لو أنهم قادمون من كوكب آخر. فاسطنبول هي محور كل شيء ومرآته، والوجود الإنساني الذي لا يتحقق إلاّ في حدود مكان يكون هنا اسطنبول لا غيرها. وهو أبداً متحيز لمكانه ذاك، يحاول إخفاء تحيزه تحت وابل من التعليقات والانتقادات اللاذعة، والتي في النهاية لا تنال من قيمة المكان بقدر ما تنال من سلوك وأخلاق بعض ساكنيه. وهو لا يزدري أبداً بقدر ما يؤلمه ويحزنه أن الوضع فيها ليس على ما يرام، أو مثلما يشتهي.

فقدت اسطنبول المتروبولية سطوتها بعد انهيار الإمبراطورية وتدشين عهد التغريب. وكان كل شيء يتحول بطريقة قاسية، وليس من غير ثمن. وبدا أن التاريخ ينعطف ويتخلق في أحبولة سرد مغاير. وكانٍ لابد من تقبل الخسارة قبل المضيِ قدماً بعد أن غدت استعادة المفقود وهماً. وبذا فإن مجمل أدب باموق متشرب بالأسى، يحكي عن الانكسار والتمزق بشيء من الكآبة وبشيء من السخرية المرّة، وبشيء من أمل غير راسخ، وغير مضمون تماماً.

× (اسطنبول: الذكريات والمدينة) أورهان باموق.. ترجمة: عبد القادر عبد اللي.. دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق ـ ط١/ ٢٠٠٧

أورهان باموق.. أمتحان دولة

سواء برغبته او بدونها اصبح اورهان باموق رمزا سياسيا بالاضافة لكونه اديبا و روائيا فذا، فحين كانت تركيا تحاكم ابرز روائييها(حائز نوبل منذ ايام) بتهمة " الاهانة العلنية للقومية التركية ". كانت هذه المحاكمة مهمة لطرفين اولهما اوروبا التي تتوقع انضمام تركيا لاتحادها والثاني الولايات المتحدة التي وصف رئيسها باموق ب " الكاتب العظيم " والذي " تمثل اعماله جسرا بين الثقافات " حتى ان جورج بوش الابن كما والده عندما كان رئيسا يشير دائما الى تركيا بانها الجسر بين الحضارات وتمثل نموذجا للديموقراطية العلمانية بين جميع الدول المجاورة.

ترجمة : لمياء مهدي

وقد تشكل احساس قوي بان هذه المحاكمة هي امتحان تركيا لنفسها، امتحان للحقيقة الكامنة خلف التوجهات الديموقراطية وموجات الحداثة، انه اختبار لتعهداتها باطلاق الحريات المدنية بما يتيح للافراد قول او كتابة ما يشاؤون.

والان وبعد التغطية الاعلامية الواسعة لن يذهب باموق للمحاكمة وبعد ان هدأت الضجة بقي سؤالان عصيبان: الاول، هل اجتازت تركيا اختبارها بنجاح؟ وهل هذا هو الاختبار الصحيح لمواجهة المجتمع الدولي؟ والاجابات تكمن – عادة – في تفاصيل القضية.... وفي وعي نابوكوف للتفاصيل...... سيكون باموق ممتنا للمقارنة!!!! بدات الدعوى عندما قدمت شكوى ضد الروائي التركي بعد تصريحات ادلى بها لصحيفة سويسرية في فبراير عام ٢٠٠٥ حيث اقتبست عنه قوله " ثلاثون الفا من الاكراد ومليونا من الارمن قتلوا في هذه البقعة من الارض ولم يجرؤ احد غيري على الاشارة للامر " وهو يشير هنا الى القتال بين الارمن العثمانيين وجيش الامبراطورية خلال الحرب العالمية الاولى اضافة الى الاعمال العدائية المستمرة منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي بين الجمهورية التركية والاكراد. ولا تشكك تركيا بقتلى الارمن في النزاع الذي مثل سقوط الامبراطورية العثمانية ولكنها تصر على ان القتل لم يكن ضمن حملة تطهير عرقي منظم وتؤكد ان مئات من اثنيات اخرى غير الارمن فقدوا حياتهم ايضا تلك الفترة، وترفض تركيا ايضا الادعاءات بان حملتها لاحتواء انتفاضة الاكراد يمكن ان تصنف ايضا كتطهير عرقي، ولم يكن امام باموق افضل من هاتين القضيتين فهي دعاوى مكثفة انسانيا وسياسيا.

في السادس عشر من السنة الماضية قرر قاضي المحكمة التركي تاجيل النظر في الدعوى بسبب الشك في المادة التي يجب ان يحاكم باموق وفقها اهي المادة ١٥٩ في قانون المحاكمات الجزائية الذي كان جاريا ايام تاليف الرواية محل الجدل او تحت القانون ٣٠١ المعدل والذي سن بضعة اشهر قبل ان يرفع النائب العام دعواه ضد باموق في سبتمبر ٢٠٠٥. وتطلب الامر –حسب القانون القديم – مصادقة وزير العدل للمضي قدما بالمحاكمة ولم تتخذ اية خطوات عملية في القانون الجديد للحد من تاثير الاجراءات التنفيذية في سير العدالة.

وبعد ذلك اعلن القاضي انه لن يسمح بالاستمرار واقفلت القضية واسقطت الدعوى ضد باموق الا ان التوجه الدولي في القضية ارسل رسالة واضحة لتركيا فيها من النقد الكثير واظهر كيف ان بعض السياسيين والمحامين والكتاب قد ادركوا طبيعة قضية اورهان باموق بوجهات نظر عديدة فعلى سبيل المثال نشرت التايمز في ١٤ اكتوبر ٢٠٠٥ مقالا لسلمان رشدي بعنوان " كيف ينظم بلد يضحي باعظم ادبائه الاحياء الى الاتحاد الاوروبي؟ " حيث يقول: " قد تلاحظ ان الادباء الاتراك تجنبوا وبشكل صارخ الحديث عن سلب الحريات الاساسية لكاتبهم الاشهر بنفس اللحظة التي يطالبون فيها بالعضوية الكاملة في الاتحاد الاوروبي، ان المطالبة التركية هي في الحقيقة امتحان للاتحاد الاوروبي واذا كانت له اية مبادئ حقيقية فعلى مسؤولية المطالبة باسقاط الدعوى فورا ضد باموق ولا داعي للتاخير، قد يظهر هذا الاتحاد بلا مبادئ وهو يدير ظهره لاعظم اديب يقاتل لاجل الحرية والمدنية، انه اختبار للغرب كما هو للشرق ". وعندما اصدر الخميني فتواه الشهيرة ضد سلمان رشدي كان باموق اول الروائيين المسلمين الذين دافعوا عن حرية رشدي في التعبير وشدد كقارئ لرواية " الايات الشيطانية " على الطريقة غير المعقولة التي اسست عليها الدعوى المعارضة للرواية. وكانت الصورة قد اتضحت كمواجهة بين العلمانية الديموقراطية بابطالها المنادين بحرية التعبير والفكر من جهة والاسلام السياسي بسمته الاساسية وهي الوقوف بمواجهة الحريات المدنية.

وكان قتل المخرج الهولندي فان كوخ دليلا مرعبا على الحد الذي وصل اليه الخلاف " كان فان كوخ قد اخرج فيلما مثيرا للجدل ينتقد فيه توجهات في الثقافة الاسلامية ".

قدمت قضية باموق وجها اخر للصراع الدائر في تركيا مع او ضد الاصوات المطالبة بالتشديد على العلمانية الديموقراطية التركية وكانت معارضة توجهات الروائي التركي اغلبها من اجهزة الدولة البيروقراطية او بعض المؤسسات العسكرية التي ترى انها اهم القوى المؤثرة في تركيا وحراسها والفصل الثابت في نظرية تدحض فكرة ان تركيا بدات بالعودة الى جذورها الاسلامية، ولذلك يجب الا يتعجب سلمان رشدي عندما اختار الحاكم في قضية باموق احضار القضاة بوقت قصير قبل انعقاد قمة الاتحاد الاوروبي فالدعوى المقامة في قضية كهذه تدار من مجموعة محامين دوليين هي محاولة لاحراج الحكومة ونسف جهودها باتجاه الوحدة الاوروبية واكثر من ذلك هي حث لقادة الاتحاد الاوروبي لممارسة ضغط سياسي على النظام القضائي التركي في قضية مهمة ابدت الجانب الاخر لمعارضة الاتراك لما يرونه تاثيرا سيئا للتدخل الاوروبي على السيادة التركية. لقد تمت تبرئة اورهان باموق حينما بعد ان خضعت الحكومة للضغوط الدولية والمحلية الداخلية.

استغل محامو حقوق الانسان والمنظمات الدولية الاخرى الضجة التي اثارها اعتقال باموق لجذب الانتباه الى ان اكثر من خمسين كاتبا وصحفيا وناشرا اخرين يواجهون مصير باموق نفسه وتحت الظروف نفسها ولم يعرضوا على محكمة لحد الان. وان الوقت لا زال مناسبا لتركيا لاثبات تعهدها باحترام حرية التعبير وهو الوقت المناسب لتعديل – ان لم نقل الغاء – القانون ٣٠١. خمسون قضية تخص حرية التعبير قد تكون مخالفة او نقصا ولكنها في الحقيقة تشير الى اتجاه التغيير في تركيا. وبعيدا عن مركز صنع القرار في اسطنبول او انقرة تلاحظ اكبر علامات التغيير عند الاكراد الذين يقطنون شرقي تركيا.

وفي تقرير للنيويورك ريفيو في ٢١ كانون الثاني ٢٠٠٦ كتب ستيفن كنزر عن لقاء مع الكاتب الكردي لطفي باسكي: " سابقا كنا نخشى الحديث علنا، كانت الحكومة تصر على ان لا للاكراد فلا اعتراف باللغة او الثقافة الكردية، كانوا يعتقلوننا ويغلقون مؤسساتنا اما الان فامور كثيرة تغيرت وخصوصا في الاشهر القليلة الاخيرة، صحيح ان مشاكلنا لم تحل لحد الان الا اننا اصبحنا نتحدث عنها بثقة مؤخرا، انه تغير ما، وحتى الامل المرجو بانضمام تركيا للاتحاد الاوروبي اصبح يشكل مصدر ثقة مضاعفة بالغد للاكراد، وعلى ما يبدو فان تسوية اوضاع الاكراد في كردستان العراق لم تؤثر بأوضاعنا. ان فرصة انضمام تركيا للاتحاد الاوروبي ستعيد صياغة الحياة السياسية هنا، ولن يكون الاتحاد صادقا مع نفسه اذا ادار ظهره لتركيا والتقدم الذي تحققه ". ولم يمر الا اقل من عقد من الزمان منذ تولى رجب طيب اردوغان رئاسة الوزراء في تركيا حتى وجد نفسه بمواجهة مع العصيان الذي اثارته اعادة نشر ابيات لشاعر تركي قومي بداية القرن العشرين:

ستكون المساجد ثكناتنا العسكرية
القباب خوذنا الحربية
المنائر حراب بنادقنا
والمؤمنون جنودنا

واليوم يحاول اردوغان كتركي مثل باموق التصدي للتابوهات الثقيلة التي تردد ان تركيا ستخسر الكثير في محاولتها الانضمام للاتحاد الاوروبي، وفي هذه الحالة يبدو مهما جدا للمفكرين والسياسيين الغربيين التمييز بين الاكثرية الاصلاحية والاقلية الرجعية. ويبدو ان اورهان باموق سيواصل كشفه حيره تركيا في تحديد هويتها سواء برواياته او تصديه العملي لكسر الاسوار عن حرية التعبير في بلد ظل حتى وقت قريب – وكما يقول الايرلندي جويس – " بلد يرسل كتابه وفنانيه الى المنافي " ولم يعد من شك في ان تركيا يجب ان تغير قوانينها حيث يعد اطلاق سراح باموق خطوة ايجابية كان يجب ان تتم عبر المحكمة لا من طريق رئاسة الوزراء، ويجب ان يستمر التغيير وتعديل القوانين حتى التحول الى بلد ديموقراطي بالكامل. اما بالنسبة لصدق تعهداتها للمجتمع الدولي فيجب الاخذ بعين الاعتبار محاولة فهم التطورات في بلد لا يوحد القارات فحسب بل يعمل كحلقة وصل بين عالمين يؤمنان بنظريتين مختلفتين للحياة.: " نحن نفتخر بنور حضارتنا، ولكن ان لم نحدق في الشمس بقوة فسوف نقذف في الظلام بعنف " كان ميلتون محقا تماما.

عن الغارديان

"ثلـــج"

رواية عن تركيا المعاصرة

رواية أورهان باموق الجديدة "ثلج" (التي ترجمتها من التركية مورين فريلي والصادرة عن دار نشر نويف) تزخر بمورثات الرسّام الحداثوي. ومثلها مثل رواية " تذكر أشياء ماضية" (البحث عن الزمن الضائع-م) فإنها تكشف تعشيقاتها الداخلية من الذاكرة المعاد تشكيلها وتنتهي بالوعد بتكوينها الخاص. يعرف بطلها بإسم "كا" وهو تلميح من الصعب إغفاله إلى "ك" بطل رواية "القصر" لكافكا. مكان الحدث هو مدينة ريفية مهجورة هي "قارص" – مع أن "قار" تعني "ثلج" إلا أن "قارص" هي مكان حقيقي في الزاوية الشمالية الغربية لتركيا بالقرب من "أرمينيا". وقد دمرها " تامرلان" في عام ١٣٨٦ واحتلها الروس بين فترة وأخرى في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وتوحي، في الأيام الأربعة المحمومة التي تكون فيها محاطة بالثلج- بالعالم المصغر الجبلي الميال للجدل للمصحة العقلية لرواية توماس مان "الجبل السحري" مع أثر ضئيل مهلك من " بلدتنا" غير المسماة في رواية دوستويفسكي "الشياطين".

دجون أبدايك

ترجمة: نجاح الجبيلي

أن الطيف الرقيق لما بعد الحداثة يطوف في ظلال السرد المعقد لرواية " باموق" وسلالمها اللولبية. وهو مثل "إيتالو كالفينو" مولع بصنع النموذج إذ يصور مدينة "قارص" بهوس كما فعل جويس بدبلن ويرتّب القصائد التسع عشرة التي كتبها "كا" هناك على شكل ندفة الثلج الموزعة بشكل بلوري. وذلك لا يعني أن رواية " ثلج" لا تحفل بالتشويق في دوامة المواقف. إن باموق مثل " ريمون كوينو" (روائي سريالي فرنسي-م) موهوب مع لمسة خفيفة من اللامعقول، وهو ينسج تطورات حبكة هزلية إلى الدرجة التي يلمّح فيها إلى أن أي حبكة في هذا الكون العادي المشوش هي هزلية. إنه مسحور بالواقع المزيف و الحقيقة الكاذبة للأداء المسرحي، وتتمحور رواية "ثلج" في أوجهها السياسية، حول أداء ليلتين في "مسرح قارص الوطني" الذي يختلط فيه الوهم مع الحقيقة على نحو يصعب التمييز بينهما.

إن كوميديا الأحداث العامة، حيث الاحتجاج والتصريح سرعان ما ينضجان ليتحولا إلى كليشة ميلودرامية تخفي حقائق تراجيدية معينة لتركيا المعاصرة: فرص العمل القليلة التي تؤدي بالرجال العاطلين إلى الجلوس بصورة دائمة في المقاهي لمشاهدة التلفزيون؛ التوتر بين العلمانية التي أسسها كمال أتاتورك في القرنين التاسع عشر والعشرين والنهضة الحالية للإسلام السياسي؛ القضية الحامية المتعلقة بحجاب النساء؛ الانقسام الحضاري بين النخبة المؤيدة للغرب والعامة المؤمنة. تمتد تركيا، في جغرافيتها، ما بين أوروبا وآسيا؛ ويتضمن تاريخها مشهد الانتصار الإمبراطوري للسلاطين العثمانيين وبعد تدهور طويل، الثورة العلمانية التحديثية بقيادة أتاتورك. ولا يرتدي التقليد هناك الطربوش والعمامة فحسب بل أيضاً زي المقاومة الإسلامية.

"كا" في الثانية والأربعين، من أهالي اسطنبول،غير متزوج عاش لمدة اثنتي عشرة سنة كمنفي سياسي في ألمانيا، يأتي إلى "قارص" التي زارها قبل عشرين سنة مضت، كي يكتب تحقيقاً لجريدة أحد أصدقائه، عن وباء محلي من الانتحار بين النساء الشابات، ولكي يرى زميلته في الجامعة " آيبك" الجميلة، التي عرف أنها انفصلت عن زوجها "مختار" وهو من المعارف القدماء، ويخوض معركة انتخابية للفوز بمنصب المحافظ؛ وهذه الانتخابات هي إحدى الخيوط التي دفنت تقريباً خلال الأيام المتتالية في العاصفة الحقيقية لتعقيدات وشخصيات أخرى.

إن مسرح الحدث الأناضولي ومعماره التالف الذي كان يعبق بصورة شعرية بالأرمن والروس الذين سكنوه قديماً، يقطنه الآن الأتراك الذين تبدو أسماؤهم للقارئ الأمريكي كحكاية جن غريبة: قديفة، زاهدة، صوناي ظائم، فوندا أسر، غونتر بنر، هاقان أوزغة، مسعود، فاضل، نجيب، تسليمة، عبد الرحمن أوز، عثمان نوري تشولاق، طارقوت أولتشون، والاسم الكامل لـ "كا" الذي يبقيه طي الكتمان وهو (كريم ألاقوش أوغلو).

وفي دوره المؤقت كصحفي، يسمح لـ "كا" بالوصول إلى سلسلة من وجهات النظر المحلية،، تتراوح من وكيل نائب الحاكم (الذي يقول له: "لو كان البؤس هو السبب الحقيقي للانتحار لقتلت نصف النساء في تركيا أنفسهنّ".) والمعلم الديني اللطيف" الشيخ سعد الدين أفندي" إلى "قديفة " الإرهابية الخارجة عن القانون وأخت "آيبك" والتي ترتدي الحجاب وتقترح في النهاية بأن النساء ينتحرن ليعبرن عن كرامتهن: "إن لحظة الانتحار هي الوقت الذي خلاله تفهم النساء جيداً كم هو موحش أن تكون امرأة وماذا يعني وجودك كامرأة". وفي زيارتها الأولى لـ"كا" تلخص "آيبك" الموقف بصورة محكمة: "الرجال يكرسون أنفسهم للدين والنساء يقتلن أنفسهن". وحين يسألها عن السبب ترد " بنظرة أخبرته بأنه لن يتوصل إلى أي شيء حين يضغط عليها كي تجيب سريعاً". لكن السؤال، وعلى مدى أكثر من أربعمائة صفحة، يبهت إلى جانب القضايا الحيوية والفعالة: قدرة "كا" المستعادة على كتابة القصائد، حملته المعذبة لإقناع "آيبك" على الزواج منه والذهاب معه إلى الوجود الهامشي لشاعر تركي منفي في فرانكفورت؛ جداله مع العديد من الطلاب الشباب (نجيب، فاضل) في مدرسة "قارص" الدينية إن كان هو وبقية الأتراك المحبين لأوربا مؤمنين حتماً؟ وفي انعطافة تراجيكوميدية للحبكة يحدث انقلاب من قبل أتباع الأتاتوركية مؤيد للعلمانية ضد الإسلام السياسي في دائرة البلدية المحاطة بالثلج خطط له من المسرح الممثل الجوال المتمرس صوناي ظائم.

يشهد " كا" في أول يوم له في "قارص" اغتيال مدير معهد المعلمين كان قد منع الحجاب، ويصبح "كا" متورطاً بشكل متزايد في مكائد ذات جوانب متعددة ويتحرك جيئة وذهاباً مثل بطل فيلم مثير لكنه غير قادر على الاعتقاد،بسبب هوسه، بتلك الإذن الصاغية للقصائد التي أملتها عليه سلطة عليا والاهتمام المطرد بشكوكه. هل مؤمن بالله أم لا؟ هل تستحق السعادة ذلك؟ ويقرر، بعد فاصل من النشوة مع "آيبك" بأن "السعادة القصوى في الحياة هي احتضان فتاة جميلة وإمكانية كتابة قصيدة في زاوية ما" لكن حتى هذا الاستنتاج غير الاستثنائي يذوب بسبب الشكوك: فهو يتوقع أن" ألماً ساحقاً مدمراً للروح سوف يهرس سعادتهما". وتؤكد له "قديفة" الوسيمة التي يبدو نشاطها الإرهابي مغرياً للنساء:" إن الناس الذين يبحثون عن السعادة فقط لن يجدوها أبداً".

إن "كا" المضطرب المولع بالتأمل والمجسّد للتناقض في الشخصية التركية هو، كما نعلم، من مواليد برج الجوزاء. وهو يكتسب توأماً (هذا المؤلف أورهان ضعيف تجاه الرجال الذين يتداخلون بعضهم مع البعض، مثل العبد الايطالي من القرن السابع عشر وسيده المسلم في رواية " القلعة البيضاء" أو "نجيب" و "فاضل" في هذه الرواية) حين يتبنى "أورهان الروائي" صوتاً ووجوداً بصيغة المتكلم (أنا) المهذار أكثر فأكثر.

ويثبت في النهاية أن أورهان رحل إلى قارص ليتحرى مغامرات صديقه "كا" بعد سنوات من حدوثها. وتبرز دلالة السرد الخفية كونها الغموض العصي للكاتب المحنك والمعتبر – عقبته – بوجه تخلف أمته وخرافاتها وتعاساتها. ما علاقة حالات "كا" الداخلية – سعادة الطموح المتقطع، الأحلام الرومانسية في الإخضاع الإيروتيكي، نوستالجيته الشديدة نحو طفولته المخبأة، حسه المتضائل بصحة الإسلام ووجود الله وبالحقائق السياسية والاقتصادية للعالم؟ إن إلهه هو الطبقة الاجتماعية التي تركت الإسلام إلى الخدم ورحبت بالانقلابات العسكرية، بحظر التجوال الحذر وموسيقى المارش في الإذاعة. وحين تضرب الشرطة "مختاراً" صديق "كا" ومنافسه تصور بأن مختارا قد وجد الخلاص في هذا الضرب؛ وقد يكون قد حرره من الذنب والكرب الروحي الذي شعر به بسبب بؤس بلده وغبائه". والأبيات الوحيدة المقتبسة من قصائد "كا" التسع عشرة المفاجئة والملهمة تجري على النسق التالي:

(حتى لو نزلت أمك من السماء لتحتضنك
حتى لو سمح لها أبوك الشرير أن تذهب دون ضربها ليلة واحدة فقط
فستظل بلا ذكر ويبقى برازك جامداً،
وستذبل روحك، ليس ثمة أمل!
فإن كنت محظوظاً بما يكفي للعيش في "قارص"
يتعين عليك أن تغسل في الحمام.)

غير أن سيئي الحظ سيحتجون، ففي أثناء اجتماع سياسي يكافح بصورة محزنة وهزلية ومحببة لصياغة بيان لجريدة "فرانكفورتر روندشاو" يصيح شاب كردي غاضب: " إننا لسنا حمقى. نحن مجرد مساكين!" ويضيف:" حين يصادف غربي شخصاً من قومية فقيرة يشعر غريزياً باستهانة لذلك الشخص ويعتقد فوراً أنه فقير إلى هذا الحد لأنه ينتمي إلى قومية غبية. وهنالك احتمال كبير بأن الغربي يعتقد أن رأس هذا الشخص مليء بالخزعبلات والغباء الذي جعل قوميته كلها فقيرة بائسة". ويتساءل المؤلف نفسه الذي يصل إلى ما يصطلح عليه "ربما.. مركز قصتنا":

"ما مدى أملنا في فهم أولئك الذين كابدوا بشدة من الكرب والحرمان الأكبر وخيبات الأمل الساحقة أكثر مما عرفناها نحن؟ حتى لو وضع أغنياء العالم مكان الآخرين فما مدى فهممهم للملايين من البائسين من الذين يعاونون من حولهم؟ وهكذا الأمر حين يمعن أورهان الروائي النظر في الزوايا المظلمة في حياة صديقه الشاعر الصعبة والمؤلمة، فكم يمكن أن يكون فاهماً حقاً؟

هكذا تنعطف العواطف الجمالية الخاصة والحاسمة لـ "كا" بطريقة ما تجاه السياسة. إن التقمص العاطفي يربط المجتمع سوية إضافة إلى تمكينه لأعمال الخيال. لكن هل يغير الأغنياء والأقوياء الذين تصوروا مرة طريقهم في مكان الذين هم أقل حظاً، المسار ويتبرأوا مما لديهم كما نصح بذلك كل من بوذا والمسيح؟ وهل سينفع جداً أن فعلوا ذلك؟ أليس هو نزاعاً بين الطبقات والأمم، وغالباً بين الجماعات التي تفهم أحداها الأخرى جيداً؟ إنهم يتنافسون على الجائزة نفسها، الأرض نفسها، والسيطرة على الموارد نفسها. إن رواية "باموق" المصاغة بحذر ويستبد بها الضمير، المتوترة في هدفها وصراحتها وسخريتها، لا تحرضنا، حتى خيالاتنا كي نتغلب على الظروف الحالية في تركيا. حين يحدث انقلاب في "قارص" فإن الحماس بين الشباب العاطل يؤدي إلى أن يعلق المؤلف عليه بجفاف:" بدوا إنهم يفكرون في أن أحداث الليلة الماضية دلت على بداية عهد جديد لم يعد يسمح فيه للفساد والبطالة وكأنهم فكروا في أن الجيش قد تدخل بسرعة ليجد لهم وظائف".

هذه الجبرية الواقعية وواجب الشاعر "للإصغاء إلى الموسيقى الخفية التي هي أصل الفن كله" والإيمان بأن" الحياة لها شكل سرّي" تجفف المنافسات الدموية الأيديولوجية في رواية "ثلج. إن لـ "كا" حضوراً شبحياً جارفاً إذ يصبح متورطاً في دور الرجل المفاوض والمخطط للحدث. ليس من الواضح، في الأقل بالنسبة لهذا القارئ، ماذا كان حدثه الفاصل الذي يعاني منه في النهاية. ولا حبه لآيبك الجميلة والحكيمة كما ينبغي أن تكون، كان مؤثراً جداً.

إن مقايضات العشاق لها صراحة ملغزة تقتفي أثر همنغواي:"عرفت كل شيء علمونا عن الإسلام لكني نسيته فيما بعد وكأن كل شيء أعرفه عن الإسلام جاء من فيلم " الرسالة" – كما تعرف. ذلك الفيلم مثله " أنتوني كوين". ابتسم "كا". لقد عرض قبل مدة في القناة التركية في ألمانيا – لكن لسبب ما غريب، في ألمانيا. أنت هنا هذا المساء. أليس كذلك؟"

"نعم"

" لأني أريدك أن تقرئي قصيدتي مرة أخرى" قال كا ووضع دفتر ملاحظاته داخل جيبه:" هل تظنين أنها جميلة؟".

"نعم حقاً إنها جميلة"

" ما الجميل فيها؟"

" لا أعرف إنها جميلة فقط" قالت آيبك. فتحت الباب لتغادر. ورمى "كا" بذراعيه حولها. وقبلها على فمها.

قد تقرأ الرواية بصورة أفضل باللغة التركية على الرغم من أن ترجمة مورين فريلي كانت سلسة ورائقة. إذا بدت رواية "ثلج" في بعض الأحيان باهتة وغير شفافة، فيجب أن لا ننسى أن الكتابة بنزاهة عن مثل هذه المواضيع المعقدة مثل الحجاب والمعتقد الديني يتطلب الشجاعة في تركيا التي تشارك في الحرب العسيرة الحالية للعالم الإسلامي ضد التعصب مقابل الكلام الحر والبحث عن الحقيقة،. إن باموق الشاب نسبياً وعمره ٥٢ عاماً مؤهل لنيل جائزة نوبل عن ذلك البلد (كتبت المقالة قبل فوز باموق بالجائزة – م)، ولابد من أن محاولة اغتيال آخر مسلم فائز بالجائزة (نجيب محفوظ– م) قد مرت في ذهنه. إن تقديم عمل رئيس مثير صريح ومربك مستفز، نقيض النزعة الأثرية المألوفة للمؤلف، معاصر تماماً في إطاره وموضوعاته، يتطلب الشجاعة إذ أن الفن أحياناً يزور حتى أشد ممارسيه انفصالاً.

عن مجلة " ذه نيويوركر"

http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

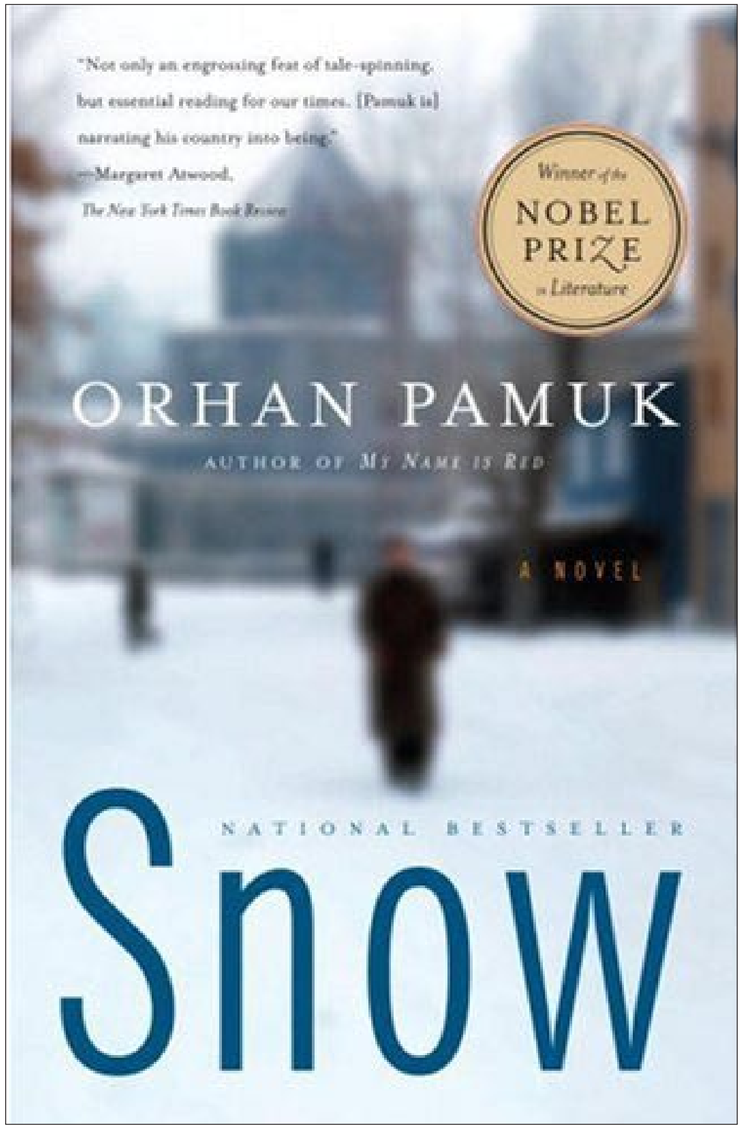

(ألوان أخرى).. مقالات وقصة لأورهان باموق

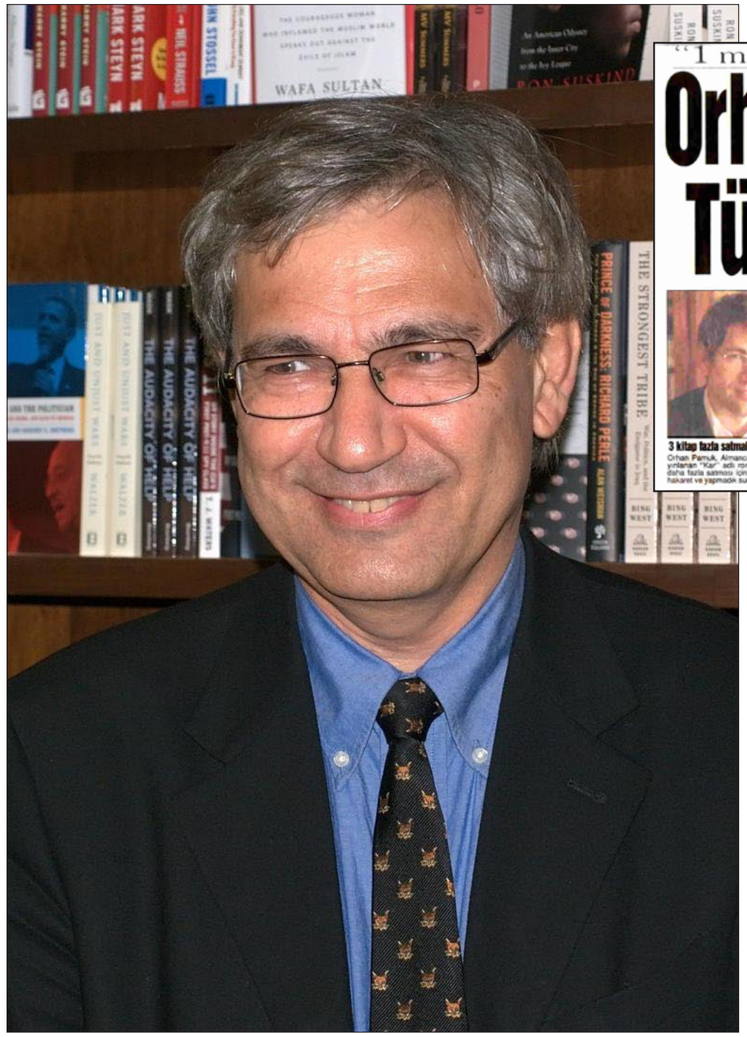

راجعها: جون مولان
ترجمة: نجاح الجبيلي
عن الغارديان

هل يمكن أن تفسد مكانة الكاتب الأدبية بالفوز بجائزة نوبل؟ حين فاز أورهان باموق بجائزة نوبل للأدب عام ٢٠٠٦ اعتقد على نطاق واسع أن الأكاديمية السويدية قد اعترفت بمكانته كناطق عن حرية الكاتب. وبرهن هذا على أنه شخص جيد أكثر من كونه كاتباً جيداً. لقد اتهم باموق وهو الكاتب الأفضل مبيعاً في بلده، "بالتشويه العلني للهوية التركية" وطلب المدعي العام بالحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام. وجريمته المفترضة جاءت في مقابلة له مع صحيفة سويسرية إذ قال أن مليون أرمني و ٣٠٠٠٠ الف كردي قد تم قتلهم في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى. كان هذا الكلام للجمهور الأوربي عما يعد موضوعاً محرماً بالنسبة للأتراك قد زاد من حدة الغضب عليه.

في قطعة من الكلام الرقيق المميز في هذه المجموعة الجديدة " ألوان أخرى- مقالات وقصة " يقول باموق أنه يعيش في بلد " يقدّر باشواته وقديسيه وشرطته في كل فرصة، لكنه يرفض أن يقدّر كتّابه حتى يقضوا سنوات في المحاكم والسجون" . وما أن قدم للمحاكمة حتى هنأه أصدقاؤه الأدباء لأنه أصبح أخيراً " كاتبا تركياً حقيقياً" . بالتأكيد أن رواياته سياسية. فروايتاه الأخيرتان " اسمي أحمر" و " ثلج" تتأملان تباعاً في التناقضات بين الأفكار الغربية والإسلامية حول مسؤوليات الفنان وافتتان الشباب التركي بالأصولية. ومع ذلك فهما عملان يلعبان على الشكل أيضاً، ومثلهما مثل العديد من روايات باموق، تحتويان على قصص خادعة في الاكتشاف. وله مكانة أقل مما يستحق كونه كاتباً لروايات محنكة تفرض نفسها بقوة.

إن الرواية كجنس أدبي هي التي قدمت لباموق دائماً الإمكانيات المتاحة للتمرد. يعلن عثمان راوي روايته " حياة جديدة" وهو لا يدرك ما نوع القصة التي يرويها. "إن هذه اللعبة العصرية المسماة الرواية التي هي الاكتشاف الأعظم في الحضارة الغربية، ليس لها علاقة بمسألة ثقافتنا" ويعلن باموق بصوته في واحدة من العديد من المقالات عن دوستويفسكي في هذه المجموعة: " مع الموسيقى الأوركسترالية، تعد الرواية الفن الأعظم للمدنية الأوربية" .

إن الروايات العظيمة تحرر قراءها من التزاماتهم المشتركة وتمسك بانتباههم الأساس. وهو يتذكر قراءة رواية ستندال " صومعة بارما" وكيف " بدا لي وكأنه كان يهمس لي كل حكمته في أذني، فقط لي" .

وهو يبتهج بالترجمة التركية لواحدة من أغرب الروايات " ترسترام شاندي" التي سيربك نثرها الملتوي المباح " المحافظين الدينيين وأصحاب التقليد والقوميين الذين لا يستطيعون أن يتقبلوا نكتة، واليعاقبة الكئيبين" .

وحين كان شاباً فإن هذا المؤلف المتغربن المشهور لم يرحل في الواقع، بل رحل من خلال الأدب. " في تلك الأيام اعتقدت أن الفرد قد يستطيع فهم أوربا بصورة أفضل بالتأمل في كتبها العظيمة" . لكن هذه الكتب ليست بالضرورة مهرباً خالصاً من التناقض. إن الاحتفال المتحمس لباموق بكتابات آندريه جيد يعزى إلى عرقية المؤلف الذي يحبه. " أستطيع فقط أن أعبر عما تعني أوربا لي إذا ما مزجت الاحتقار بالإعجاب، والكره بالحب، والاشمئزاز بالانجذاب" . إن حس الوجود بين حضارتين كان راسخاً منذ الطفولة. وفي إحدى الصور القلمية الحيوية الكئيبة التي يستذكرها هو التحاقه بوالديه في جنيف ودخوله مدرسة محلية. ولكونه لا يعرف الفرنسية، على الرغم من أن أمه مواظبة على تعليمه، فإنه وأخاه " سيتجولان بين زحام الأطفال وهم يلعبون حتى وجدنا كل منا الآخر وأمسكنا بالأيدي" . وسوف يتعرف القراء من أحدث كتاب له " أسطنبول: الذكرى والمدينة" بسحره بحالة العيش بين قارتين حضاريتين. وهناك تلميحات إضافية أخرى لأسطنبول في هذه المجموعة، وهي كما في تلك المذكرات عبارة عن استذكارات فاجعة لأماكن اختفت وناس راحلين.

الشرق أحياناً بعيد جداً. الشخصيات الرئيسة في رواية " اسمي أحمر" هم الرسامون وفي قطعة عن تكوين الرواية يوضح باموق كيف كان عليه بمساعدة الوصي على " قصر توبكابي" أن يعلم نفسه كيف يعجب بالمنمنمات الإسلامية المتقنة التي أضجرته في السابق. وهو صريح على نحو فاتن بشأن الخلفية الشخصية لرواياته. وهو يعترف في مقالة " ملاحظة عن العدالة الشعرية" " بأن رواياته تحتوي على الانتقامات لما عاناه في صغره. صبي يدعى حسن ضربه وآذاه. لهذا فإن كل الذين يسمون "حسن" هم أشرار. وكان يكره الذهاب إلى الحلاق. لهذا فإن الحلاقين سيئون جداً. وقد أدرج كل الشخصيات من عائلته الذين وجدوا طريقهم إلى رواية " اسمي أحمر" ، ويضيف، كإجراء جيد غير حذر، " أردت أن تكون كلاسيكية؛ أردت البلد كله أن يقرأها ويجد نفسه منعكساً فيها" .

كل شيء هنا جاء بصيغة الأنا. والقصة القصيرة المنشورة حديثاً في المجموعة " إطلالة من نافذة" تسجل عبر عيني طفل رحلة أبيه الغامضة إلى باريس من بيته في أسطنبول. وهي تصف على نحو جميل الإدراك الجزئي لطفل للاضطراب الصامت حوله نتيجة إحساسات المراهقة. إنها خيالية شكلياً: لا يوجد كاتب يوميات مراهق استطاع أن يتذكر كل تفاصيلها المضبوطة وظروفها وحوارها الوصفي الكامل. ومع ذلك فإن الخطوط العامة للمشهد تتناظر تماماً مع حقائق الحياة الخاصة لباموق. (اكتشفنا سابقاً في قطعة مبكرة بأن أبا باموق قام بالضبط بتلك الرحلة حين كان المؤلف في السابعة). لا توجد فجوة ممكن تخيلها بين المؤلف والسارد. فالحياة بالنسبة لباموق تصبح ذات معنى (مهمة) حين تجد لها نموذجاً في القصص.

أعماله ترجمت إلى ٤٠ لغة

أورهان باموق الروائي الذي يتمنى لو كان ساحراً!

نيويورك - أ. ن . أ

لو لم يكن اورهان باموق مؤلفا روائيا ربما اصبح ساحرا اذا امضيت ساعة معه فتتساءل ما اذا كان يود ان يكون في مكان آخر، بل وحتى شخصا آخر، اسأله فسيعترف لك بانه يتمنى على الدوام لو انه ليس اورهان باموق.

ولكن لباموق اسبابا وجيهة ليكون هو نفسه هذه الايام انه معتبر منذ سنوات روائيا ذا موهبة استثنائية، واليوم، هو أديب حائز على جائزة نوبل بمواهب استثنائية.

وماذا يعني ذلك لرجل كان يؤمن ذات وقت ان ثمة اورهان آخر في مكان ما؟

يعني الارتياح فحسب.

يقول باموق ضاحكا: الجزء الجميل في هذه الجائزة هو انني مسرور من الآن فصاعدا" لأن لا أحد سيسألني: "هل ستحصل على جائزة نوبل".

جائزة نوبل جاءت مسك الختام لعشر سنوات استثنائية في سني العمل الثلاثين لأشهر كاتب تركي.. خاتمة جاءت بمثابة ارتقاء حاد في شهرته العالمية.

لقد ترجمت مؤلفات باموق الى أكثر من ٤٠لغة، وهو سافر الى أكثر من ٢٠بلدا من أجل الترويج لأعماله، وعلى هذا الدرب ادلى بحصته من التصريحات السياسية التي اسفر احدها عن محاكمته في تركيا بتهمة "اهانة التركية" ذلك في ما كان قرع الطبول النوبلية يتعالى ويصيح ويصبح مثيرا للأعصاب.

ولقد شدد باموق خلال مقابلة معه في جامعة كولومبيا حيث هو زميل، على أن جائزة نوبل لن تغير شخصيته او عادات عمله، ولكنه اعرب ايضا عن تعبه من الناس الذين يغربلون كل شيء ينطق به ويكتبه بحثا عن نقاط جدلية، انه يبدو غير مؤكد ما اذا كانت الجائزة ستكون درعه الواقي او العدسة المكبرة التي سينظرون اليه من خلالها.

ويقول باموق: "السياسة لا تؤثر على عملي. بل إن السياسة اثرت على عملي، بالفعل، في الحقيقة ابذل قصارى جهدي لحماية عملي من السياسة".

باموق رجل فارع القامة عمره ٥٤سنة وله وجه ممتلئ قليلا وعيناه لوزيتان ونظارتان غير متناسبتين مع شكله وشعر غير مسرح، انه يضحك بصوت مرتفع ولا يتوانى عن استعمال سبابته للزجر عندما يعتبر سؤالا موجها اليه غير لائق، وهو يصف نفسه انه انسان يجب الانفراد بنفسه، وله خيال متأجج.

ويقول: أحس بتوق لوقف هذه الحياة والبدء من جديد، انني جالس داخل قطار والقطار يصل الى المدينة.. او انه يمر بالقرب من المنازل.. حيث أرى داخل منزل يجلس فيه رجل، وافراد عائلته وهناك جهاز تلفزيون شغال وهم جالسون حول المائدة.. انك ترى حياة جارية هناك.. وتحس بتوق قوي لتكون هناك، انك انت مكانهم. وتكون مثلهم".

هل يتمنى اورهان باموق لو كان رجلا آخر في مكان آخر

ولد باموق في عائلة ثرية في استامبول ويصف نفسه انه مسلم "ثقافيا" دون ان يلعب الدين دورا في نشأته وفي مطلع عشرينات عمره، وبعد ان مل من دراسة هندسة البناء وغاب طموحه بان يصبح رساما قرر ان يتحول الى الكتابة، وقد مضت عشر سنوات قبل أن يتمكن من نشر اي عمل له، وظل حت بلوغه سن الثلاثين يأخذ مصروف جيبه من والده.

غير ان مهارته في مضمار الفنون كان لها اثر كبير على رواياته المعقدة التركيب والثاقبة للأنظار، وهو يعد بروست وتولستوي بين مصادر إلهامه، ويقول انه يحب الأعمال الأدبية ذات الطبقات العاطفية المتعددة مثل (The Possessed) "وآنا كارينينا".

أما قصصه الشاعرية الشبيهة بالأحلام، وهي غالبا مفعمة بالكآبة - تسعى للعثو ر على انسجام في الفوضى، ولكنها لا تنجح في ذلك".

في روايته snow (ثلج) وهي أكثر رواياته ميلا الى الطابع السياسي، يكتب باموق عن محنة فتيات مسلمات يافعات يرغبن في ارتداء الحجاب في المدرسة ولكن يصطدمن بقبعات في تركيا العلمانية، وفي الكتاب تبدو آراء كل الشخصيات بأن لها استحقاقها، وفيه يجد العلمانيون والاسلاميون على السواء الكثير مما يحبونه ومما يكرهونه، وقد كان هذا الموضوع حساسا جدا في المرحلة التي كان يجري جدال مستمر في تركيا حول مساعي الانضمام الى الاتحاد الاوروبي، وهو يؤيد تلك المساعي علنا".

المنازعات في تركيا، البلد ذي القناعات الدينية والعلمانية جانبا الى جنب تعشش في أعماق باموق، واضافة الى snow تضم اعماله المشهورة "الكتاب الأسود" و"اسمي أحمر" وله ايضا مؤلف آخر باسم استامبول نصفه مذكرات ونصفه تاريخ المدينة التي أبصر فيها النور.

يمضي باموق سنوات عديدة في اجراء أبحاث حول مواضيعه قبل أن يحول فكرة ما الى كتاب، انه يخطط ويصمم مخطط كل جزء من الرواية، وهو لا يزال يستعمل قلم الحبر. ويقول باموق: "احد أروع متع كتابة الروايات ليس الكتابة بحد ذاتها بل التخيل عن روايات أخرى ستكتبها ذات يوم، لدى مفكرات وملاحظات، والكثير من المواد للروايات التي سأكتبها يوما "ما. ثم، واقعيا "طبعا" تدرك انك لا تستطيع ان تكتب كل تلك الروايات، ولكن الأمر اشبه بتخيل حياة أخرى، اشبه بعمل ذلك". ولا يعتقد باموق ان افضل الحالة قد اصبحت وراءه، ولكنه يستبعد ان يتكئ على جائزة نوبل، ويقول: "انني على يقين انني سأنزعج كثيرا" اذا كتبت صفحة بعد شهرين ولم اكن راضيا عن النوعية. وسيعذبني مجددا اعتقادي ان الفكرة التي اكتبها ليست جيدة.

انك لوحدك هناك ولن تفيد جائزة نوبل". ويأمل باموق ان يكون لحصوله على الجائزة اثره الايجابي على المؤلفين الأتراك الآخرين، الا انه غير مقتنع بان ذلك سيحميه من الاضطهاد السياسي في المستقبل، ويشير الى أنه كان مشهو ر ا اصلا عندما حوكم في ا لسنة الماضية.

وقد وجهت الاتهامات الى باموق بعد ان قال لاحدى المطبوعات السويسرية ان تركيا لا ترغب في التعامل مع الفصول المؤلمة من تاريخها المتعلقة بالمذابح التي ارتكبت ضد الأرمن خلال الحرب العالمية الأولى والتي ترفض تركيا الاعتراف بانها كانت تشكل ابادة عنصرية، وقتل العديد من الأكراد، وقد اسقطت الاتهامات الموجهة اليه لدواعي تقنية في شهر كانون الثاني الماضي.

ويصر باموق أنه مجرد روائي يكتب عما يعرفه وما يلفت اهتمامه. ولكن الآخرين يعتبرون كتاباته بمثابة تعليق سياسي في مرحلة التوتر بين الغرب العالمي والاسلامي.

ومع ذلك، لا يحتاج باموق الى الكثير ليقول شيئا ذا طابع سياسي، وكأنه لا يطيق ان لا يكون نزيها في مواقفه. وتقول مورين فرلي، التي تعرف باموق منذ سنوات وقد عملت مترجمة له: "انها مسألة ضمير اذا كان الأمر مهما "فانه سيقول شيئا" واذا كان شيئا يعتبره واجبا، عليه، فانه لن يتهرب".

عندما فاز باموق بجائزة نوبل عيره بعض مواطنيه قائلين انه اختير للجائزة ليس لمؤلفاته بل لسياسته، وقد كتمت والدته سعادتها بفوزه خشية من كيفية رد الاتراك اليمينيين.

ويقول باموق عن منتقديه: "انني أعانقهم هذا يوم احتفال بي ولتركيا ولن ارد عليهم".

منذ اربع سنوات يعكف بامو على تأليف رواية يقول انها ليست سياسة ولا تاريخية: انها قصة عن هوس رجل غني في استامبول وانبهاره بقريبته الفقيرة، واسم الرواية "متحف البراءة".

الا ان ما يشغل باموق في الوقت الحاضر هو الاهتمام غير المرغوب بما يعكف على كتابته حاليا "اي خطاب قبول جائزة نوبل انه لا يزال يفكر بما سيقوله.

ربما، عندما يتم تكريمه بالجائزة رسميا في استوكهولم في العاشر من كانون الاول سيتمني لو كان في مكان آخر ورجلا آخر".

أورهان باموق.. بين اسطنبول وذكريات الطفولة

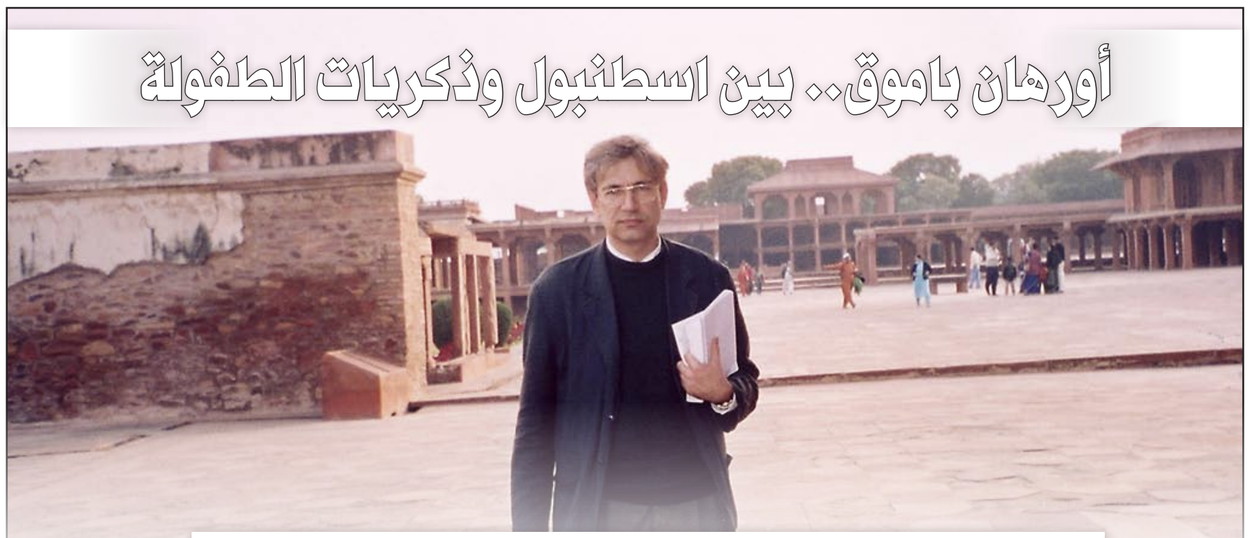

ارتباط الإنسان القوي بمدينته يبلور شخصيته الأدبية.. هذا ما حصل مع باموق حين تنفس لأول مرة هواء اسطنبول وعاش فيها وأصبحت هي قدرهُ الذي لا يُناقش. ولد في ٧/ حزيران/ ١٩٥٢ لعائلة ميسورة الحال ذات جذور عثمانية.. وعاش مع والدته وأخيه الأكبر وجدته وأعمامه وزوجاتهم في بناء مؤلف من خمسة طوابق مكتوب على بابه ببناء "بناء باموق".. وعائلته سكنت الطابق الرابع. وكما أن انهيار الدولة العثمانية لاسطنبول منحهم الحزن والضياع.. والعام شمل الخاص.. تفتتت العائلة الكبيرة وعائلتهم الصغيرة عبر المشاحنات الكثيرة بين أمه وأبيه، وبين أبيه وأعمامه وعماته لكثرة الخسارات التي ألمت بهم. كان التخيل إحدى الغرائب الخاصة به في طفولته.. وشعوره بأن هناك شخصاً آخر مثيله وكأنه توأمه يشبهه في كل شيء..

كليزار أنور

هذا الأمر لم يجعله مريضاً بانفصام الشخصية، لأن بمقدوره العودة إلى واقعه في أية لحظة يريد هو.. كما لو أن أحدهم يُطفئ المصباح وهو خارج من الغرفة، فالفرق كبير بين رجل يعتقد أنه نابليون ورجل يُسرُّ من التفكير دائماً بأنه نابليون. وكان يحب أن يرى كل الأشياء من حوله بالأسود والأبيض ويستهويه الثلج كثيراً، فاسطنبول تبدو أجمل تحت الثلج، إذ يغطي طين المدينة وقذارتها وتصدعاتها وأمكنتها المهملة. وشكَل البسفور أيضاً إحدى أهم المتع الحقيقية التي شعر بها لما يمثله من أثر لعصر غني في مرحلة دخلت فيها الحضارة العثمانيَّة وثقَّافتهَا تحت التأثير الغربي من دون أن تفقد خصوصيتها وقوتها. حضارة البسفور منحته زهواً كونه امتداداً لحضارة عظيمة.

البيت (بناء باموق) أولُ حضن "هل هذا ارتباط ببيت؟ ممكن. لأنني ما زلت أعيش في البناء نفسه بعد خمسين سنة. البيت مهم بالنسبة لي لأنه مركز العالم في رأسي أكثر من كونه جمال غرف وأغراض. ولكن خلف ذلك الحزن هناك إحساس طفولي ومعقد بشجارات الأم والأب، وفقر قادم باستمرار نتيجة إفلاسات أبي وعمي، وصراعات المال والملك داخل العائلة." ص (٩٠-٩١). ويتطرق إلى علاقته بوالديه الغائبين دائماً لحد الضياع.. وسَكنه لفترة في بيت خالته في (جيهان غير) وتعاملها اللطيف معه هي وزوجها الصحفي والشاعر والناشر (شوكت راضو).

وكل هذا ولّد في داخله شعوراً بالحزن وخلق سوداوية مترسخة في قلبه بتباه.. انه حزن جماعي موحد وفريد بين الذين يعيشوَن في المدينة.. أي اسطنبول.. هذا ما شعر به (بودلير) عندما زارها وبعدها صديقه الكاتب والناقد (تيوفيل غوتيه) الذي وجد بعض مناظر المدينة سوداوية جداً، فألف كتاباً عن ذلك.. وتأثر به الكتّاب الاسطنبوليون أمثال (يحيى كمال و أحمد حمدي طنبنار) وغيرهما من الشعراء.. الكل يشاركون المدينة حزنها وشعورها بالخراب والفقدان.. ويبدو أن سر اسطنبول هو أن تعيش الفقر إلى جانب التاريخ العظيم.

ومن اللواتي أثرن فيه وخاصة بطفولته جدته لأبيه.. خريجة معهد المعلمات، درست التاريخ والتي كانت مؤمنة بحملة التغريب الأتاتوركية، لكن دون أن تهتم بالشرق أو الغرب.. امرأة طويلة ونحيلة وجميلة ارتبطت بجده بعد أن خرجت معه قبل أن تخطب إليه وهذا بحد ذاته جرأة كبيرة في اسطنبول في ذلك الوقت.. ومات الجد بعد أن جمع ثروة جيدة.. وأصبحت الأرملة ربة أسرة كبيرة.. سطوتها سارية المفعول داخل البيت إلى أن أضاع والده وعمه من ايديهما المصنع الذي خلفه الجد في باكورة عمرهما وتتالت الافلاسات وبيع أمهما الأملاك والأبنية واحداً بعد الآخر.. عاشت حياة مرفهة لديها الحشم والخدم تأمر وتنهي وتدخن وتلعب بأوراق اللعب مع صديقاتها.. وأغلبهن بعمرها ومستواها. ودراستها للتاريخ جعلها تسمي كل حفيد من أحفادها باسم أحد سلاطين الدولة العثمانية المظفرين في سنوات تأسيسها. كبر الطفل ودخل المدرسة.. أراد منذ البداية أن يُفهم الصف والمعلمة بأنه تلميذ جيد وذكي.. يرفع اصبعه لكل سؤال يعرفه أو لا يعرفه.. كانت رغبة لإظهار نفسه للمعلمة بأنه ذكي وشاطر مثل الغني الذي يضع قطعة زينة أو ربطة عنق غالية ليُبين للناس ثراه. والأمر الآخر الذي تعلمه في المدرسة.. يحب رؤيته للمعلمة بوصفها "سلطة" يجب أن تطاع ولابد للحصول على مباركتها، بانجازه الفروض المدرسية وسماع نصائحها وحل مسائل الحساب قبل الجميع والحصول على أعلى درجة ليكون بنظر المعلمة أذكى تلميذ في الصف.

وعلى مدى خمسة وأربعين عاماً بعد تعلمه القراءة والكتابة يتذكر مكتوبجية المدينة بدءً من أحمد راسم ويحيى كمال وعبد الحق شناسي ونامق كمال وعلي أفندي البصيري وأحمد هشام.. ووصولاً إلى برهان فلك.. اهتموا بكتابة المقالات التي تتناول المدينة وأهلها.. هدفها تقديم آداب العيش والدخول في تفاصيل حياة الاسطنبوليين مقدمين النصائح والانتقادات.. وهذه نصيحة كاتب زاوية اسطنبولي (أحمد راسم) عمرها مائة وثلاثون عاماً: "إذا كنتم لا تجدون موضوعاً بسبب المحظورات السياسية، وضيق الهامش، تناولوا موضوع مشاكل البلدية، وحياة المدينة، لأنها مقروءة في كل وقت!" ص ١٤٢.

بعد دخوله المدرسة اكتشف أهله ومَن حوله بأنه يمتلك موهبة الرسم.. وشجعه والده -خاصة- فاشترى له الأوراق والألوان والأقلام ليرسم، وأبدى اعجابه بكل لوحة يرسمها.. واستجاب للمديح وتحولت الموهبة الى مهارة حقيقية تدريجيا.. وشعر بأن الرسم هو امتلاك عالم ثان لا يشعر بالذنب من وجوده.. عالم يخلصه من مضايَقات الحاضر إلى واقعية عالم آخر مما جعله يؤمن بأنه شخص خاص ومختلف. ومن الخامسة عشرة بدأ برسم مناظر اسطنبول بشكل مهووس وخاصة مناظر البسفور. لم يكن الرسم وحده يشكل اهتمامه الوحيد، بل القراءة ايضاً، ففي صالون جدته لأبيه، في المكتبة ذات الزجاج الجرار التي قليلا ما تُفتح توجد موسوعة الحياة وكتب ضخمة كثيرة.. أخذت قدماه تمشيان اليها.. قرأها بنهم وحب.. ومن أكثر الكتب التي نالت اعجابه (موسوعة رشاد أكرم قوتشو) التي يفخر بها قوتشو بأنها أول موسوعة في العالم حول مدينة. ويعتبر إحدى الشخصيات التي أبدعت صورة اسطنبول الحزينة كحزن حياته.

عائلته ابتعدت عن الدين تماماً، فلم ير أحداً من عائلته في بناء باموق يصلي أو يصوم أو يتمتم بدعاء.. ما عدا الخدم.. لذا ارتبط بذهنه الطفولي بأن الله لا يهتم بأمثاله، بل بالفقراء فقط وبأن الدين عائد لهم.

درس المرحلة الثانوية في (روبرت كوليج) أربعة أعوام بما فيها السنة التحضيرية لدراسة اللغة الإنكليزية.. هنا أدرك أن طفولته انتهت وأن العالم أكثر تعقيداً مما كان يتصور.. وطالما لديه الميول للرسم فدراسة العمارة تناسبه تماماً.. ودرس بعدها الهندسة المعمارية في الجامعة التقنية في اسطنبول.

كبر الشاب الذي في داخله وبدأ القلب يدق.. وأعطى لأول عشق دخل حياته اسماً مظللاً.. اسمها فارسي ويعني: الوردة السوداء. تدرس في المدرسة الفرنسية، من عائلة غنية، وفي أحد الأصياف جذب اهتمامها.. وأعجبت به وترددت على البيت الذي أتخذه مرسماً.. كانا يلتقيان هناك ليرسمها وأصبحت نموذجه.. وتوالت اللقاءات.. خرجا إلى اسطنبول لإخفاء عشقهما لا لإعلانه.. كانا يمشيا كسائحين. واعتادت بعدها أقدامهما إلى متحف الرسم والنحت. وانتهى غرامه الأول بسفر الحبيبة إلى سويسرا للدراسة في إحدى مدارسها الفخمة.. كتبَ لها رسائل كثيرة، ولم يتلقَ الجواب!

رؤية الكتاب الأتراك – وخاصة الكاتب أورهان باموق- عن اسطنبول تختلط دائماً بذكرياتهم، وحبهم الشديد لمدينتهم التي ترعرعوا فيها.. انها شبيهة بالولاء. وهي رؤية تختلف عن رؤية الغريب لها الذي جاءها كسائحاً وعيناً أخرى، فقد سجل الأجانب كيف بدت المدينة بحيادية.. عاداتها وتقاليدها وتكايا الدراويش، والحدائق، وجمال المقابر، والقصر، والسلطان، والحرم، والمتسولون، وكلاب الشوارع، وخطر الخمر، واختباء النساء، وأسرار المدينة، والرحلة إلى البسفور، وجمال المناظر والخيال. وكانت اسطنبول –على مر التاريخ– مثار فضول.. لذا زارها كتاب كثيرون وسجلوا ملاحظاتهم وكتبوا عنها ورسموها أمثال: (الرسام ملينغ، ودي كامب.. والكتّاب: جيرار دي نيرفال، تيوفيل غوتييه، إدموند دي أميكيس، فلوبير، لامارتين، اندريه جيد، بيير لوتي، كنوت هامسون، هانس كريستيان أندرسن). "لماذا يسعدني إلى هذا الحد السماع من الآخرين بأن اسطنبول مدينة حزينة؟ لماذا أبذل كل هذا الجهد لأشرح للقارئ جيداً بأن الحزن هو الشعور الذي منحتني إياه المدينة التي قضيت حياتي كلها فيها؟" ص٢٥١.

"اسطنبول الذكريات والمدينة" مذكرات الكاتب التركي أورهان باموق/ صادرة عن دار المدى/ ٢٠٠٧

اورهان باموق ومتحف الروائيين

قراءة اي رواية تجعل القارئ يحلم بزيارة الاماكن التي صورها الكاتب، هذا يصدق على عالم ديكنز الفيكتوري وعالم الحي اللاتيني الذي ورد في روايات شرق - غرب او زيارة هايد بارك الذي تعرف فيه مصطفى سعيد بطل الطيب صالح على واحدة من نسائه، بل هذا يصلح على روايات نجيب محفوظ عن القاهرة. وفي المئوية الاولى لرواية «عوليس» نظم القائمون على احياء المئوية رحلات الى عالم الرواية. واليوم فان الكثير من السياح في اسبانيا يحملون معهم ادلة يحاولون فيها تتبع خطى دون كيخوت، مما يشير الى ان القارئ يتعامل مع عالم الرواية كحقيقة ومن هنا نفهم محاولة ناباكوف وضع شرح لرواية تولستوي «انا كارنينا»، وهو عمل لم يتمه ولكنه يشير الى هذا الواقع تماما كما يحاول القراء البحث في المواقع القديمة او التي وصفها الكاتب على انها واقع ولكنه -القارئ- سرعان ما يدهش بعادية الاماكن. هي اماكن وكما نعرف فان مكان الطفولة الذي تغادره ليس هو نفس المكان الذي تعود إليه، فان لم يتغير معماره تتغير الوجوه والحالات، وما يهم في تجربة الزيارة انها نوع من تحقيق الرضى النفسي. ويشير الكاتب هنا الى حالة من الحسد تعتري الروائيين الذين يحاولون نقل الواقع كما ينقله الرسام وما يكمل العملية الروائية هو وجود قارئ مستعد لقراءة الرواية وفهمها، وهذا القارئ يدور في عالم الرواية مثل زائر المتحف.

البرتقالي المشجر

لا ينكر باموق ان الكاتب يسعى في بنائه للمتحف لالقاء الكثير من الملامح والانفعالات النفسية على بطله، ليس الكاتب وحده ولكن ملامح عائلته وحيّه وابنائه، ويظهر باموق ان الكاتب يخطط للعمل الروائي بالقراءة او جمع المواد التي تساعد في اعادة اختراع العالم كما كان في زمن الرواية. يقول باموق انه في اثناء تجميعه مواد من اجل بناء عالم كمال وفوسون مر في دكان لبيع الملابس القديمة برتقالي بأزهار واوراق مشجرة، فوجده مناسباً كي تلبسه في مشهد قيادتها السيارة، مما يشي ان الكاتب كان حريصا على اعطاء ملامح للابطال والتخطيط للعمل الروائي. لكن الكاتب هنا في اختيار المواد يختار تلك التي تعكس اهتمامه والتي ألهمته. كل هذه الاشياء والجهود التي يبذلها الكاتب كافية لان تخلق جوّاً وترضي القارئ وتساعده على الوصول الى المركز. الحبكة في الرواية، لان القارئ من دون معرفة سر العمل فانه يشعر بحالة من عدم الرضى. ويصور باموق حالة البحث عن مركز الرواية او سرها بزيارة المتحف حيث يقوم الزائر حالا بالذهاب الى المكان الذي يلهمه او يبحث عن مكان الصورة التي يريد التمتع بها خالقا بهذا حالة من الخصوصية. فكلما كثرت التفاصيل، وصل القارئ لمركز الرواية، وعلى العموم فان الكتاب يختلفون في طريقة الكتابة، منهم من يفصح في البداية عن سرها ومنهم من يبدأ الكتابة ويترك نفسه تشكل الاحداث وتخلقها وتتكون مثل الجنين، حتى تصل الى مركزها بطريقة سهلة.

غرور القراءة

ويعتقد هنا ان اهم ما تقدمه قراءة الرواية انها تعطي تميزا للقارئ. فنحن امام غرور للقارئ الذي يريد ان يقول للناس انه مختلف عنهم سواء من خلال عنوان الكتاب او مكان القراءة. ويضرب مثلا عن فتاتين في مركز القبول والتسجيل في الجامعة، واحدة تخرج كتابها. البحث عن الزمن الضائع – من اجل تمضية الوقت وهي في الطابور وعينها في الوقت نفسه على زميلة تريد ان تشاطرها الحياة الجامعية خلال سنوات الجامعة. ومثلما تقرأ الطالبة الجديدة روايتها، فان الطالبة الاخرى تقوم بنفس الفعل. قراءة الكتاب نفسه. يقول باموق ان الفتاة الاولى تفقد الاهتمام بهذه لانهما مشتركتان في الاهتمام ولان الاخيرة نزعت عنها فكرة التميز وغرور القراءة، فالقارئ يحس بانه مالك للرواية التي يعتقد انها تعبر عنه، وعندما نكتشف احدا اخر يشاركنا في الملكية عندها نفقد الاهتمام، اضافة لبعد آخر في هذا الشعور بالملكية وهو ما يعبر عن نية القارئ. كل هذا مرتبط بكون الرواية تمثل ارشيفا للحياة، وقوتها ناجمة عن عكسها لحالاتنا النفسية وعاداتنا وصورتنا وتقلباتنا في الحياة.

صوت الناس

وما هو أهم من ذلك أن الرواية تمنحنا صوتا، وهو هنا يحيلنا على مقال لمارغريت يوريسنار «الصوت واللغة في الرواية التاريخية» الذي تقول فيه انه حتى اختراع الحاكي فان اصوات الناس في القرون الماضية محيت لانه لم توجد آلة لتسجلها. وبالقياس فانه حتى القرن التاسع عشر كان الروائيون وكتاب المسرح هم من قاموا بنقل نبض الحياة اليومية وحوارات الناس العادية، اي انهم اعطوا للناس صورتهم واصواتهم. وعليه فان العلامة الهامة في الرواية هي قدرتها على الامساك بالحياة اليومية ثم نقلها الى المجال التخيلي من اجل الكشف عن المعاني العميقة للحياة. وعليه فانه من غير المعقول تخيل رواية لا تمتلك قوة اقناعية للحياة اليومية. وهنا المقاربة تظهر بين المتحف الذي تحفظ فيه الاشياء القديمة وتراث الانسان، فالرواية تحفظ اصوات الناس ونبرات وتنوعات اللغة والوانها.

فن العصر

لا بد من الاشارة هنا إلى ان باموق يركز في تحليله لقصة الرواية، مع انه يدعي انه لا يقدم تاريخا او نظرية يتعامل مع الرواية الابداعية التي لا يزيد عمرها عن قرن ونصف القرن، ولانه يلقي محاضراته امام مستمع غربي- امريكي فهو يركز اهتمامه هنا على الرواية الاوروبية مع اشارات قليلة للرواية التركية. ويشير اكثر من مرة الى ان الرواية في العالم النامي في بدايتها، وليس لديها القارئ الكافي. اضافة الى هذا فهو يتعامل مع الرواية الابداعية – الادبية ويرى ان انواعا اخرى من الكتابة الروائية لها محدداتها من ناحية فهم الناس المختلفين عنا كما في الرواية السياسية. كما ان الرواية التاريخية تعاني من اشكالية عدم قدرة الكاتب على تضمين صوت الناس في الرواية لانه يستند على تاريخ لا صوت له وعليه يجد الروائي المعاصر نفسه امام اشكالية المبالغة في خلق شخصياته. ولا بد من ملاحظة ان باموق يؤكد فكرة ما يقوم الكاتب في العالم الثالث بتمثيله في رواياته مقارنة مع الروائي الغربي الذي يستند على تراث ادبي من الرواية والقراءة. وهو هنا يقول ان معظم الروائيين في العالم الثالث جاؤوا من طبقات اجتماعية رفيعة وعليه اهتموا بتصوير طبقتهم. وهم هنا يجدون انفسهم امام مشكلة تلقي من القارئ او المجتمع المثقف، وعليه فبعضهم يتمسك بفكرة الحداثة التي ولدت منها الرواية ويواصل نجاحه لانه لم يصور الا عالمه. وهنا نوع من الروائيين ممن يحاولون التعرف على مجتمعاتهم وان يكونوا جزءا من الناس. وهو ينقل الينا تجربته في كتابة روايته «ثلج» حيث زار بلدة كارس في شمال شرق تركيا من اجل التحضير لعمله هذا الذي يرى انه من اكثر اعماله التي تحمل نبرة سياسية. ويقول انه في احاديثه مع الناس عن الفساد والفقر في بلدتهم وشكاواهم من المسؤولين وجدوا ان فكرة تضمينها في الرواية امرا يسيء الى سمعتهم وعندما ودعوه الى الحافلة طلبوا منه ان لا يكتب شيئا غير جميل عنهم او عن بلدتهم. ومن خلال هذه القصة يحدثنا الكاتب عن معضلة الروائي الذي يريد ان يكون جزءا من الناس، هؤلاء الناس الذين يتعاملون مع واقعهم كجزء من هويتهم. في حينها فكر باموق انه لن يكتب عن البلدة فقط من اجل ارضاء نفسه، ولكنه يعترف الان ان الكاتب لم يعد الرواية لاسعاد نفسه بل لبناء متحف عن مجتمعه وحالاته وبهذه الطريقة يتوصل للسعادة. تمثل محاضرات باموق في اهتماماتها في مجال القراءة وتشكيل الشخصيات وفكرة المركز او سر الرواية التي يتشارك فيه القارئ مع الكاتب في البحث عن مركزها، فالكاتب احيانا يجد صعوبة في تحديد مركز او هدف الرواية تماما مثلما يجد القارئ نفسه في رحلة من اجل تحديد وتخيل مركز الرواية، وعليه فكما يجد الروائي نفسه امام مراكز تولد في بداية الفعل الابداعي وتتغير كما حصل مع دوستويفسكي وهو يكتب «الاشرار» فالقارئ يتخيل سر الرواية ومركزها بالطريقة التي يودها. والتوصل الى المركز معضلة يجدها الكاتب فمن دون مركز يجد الكاتب نفسه يغوص في الرمال .وليس غريبا ان ينتبه تولستوي لهذه المعضلة عندما وضع «آنا كارنينا» في قطار سانت بطرسبيرغ في يدها رواية ، ونافذة في مقصورة القطار تفتح على فضاء يعكس مزاجها، فمن خلال نظرة آنا الى الفضاء الذي حولها فاننا ننفتح معها على فضاء الرواية.

وعلينا ان نشكر آنا اننا ندخل الرواية التي تحملها من خلالها نظرة تحدق في البعيد، ومع نظراتها ندخل عالم روسيا في سبعينيات القرن التاسع عشر. ولأن آنا كارنينا لم تقرأ الرواية التي في يدها فاننا نقرأ روايتها. قصتها هي. من خلال هذه الرمزية. التحديق – التخيل. والفضاء والكلمة تصنع الرواية التي يرى باموق انها فن العصر الحالي والتي انتشرت في كل المجتمعات، فأي كاتب يريد التعبير اليوم يلجأ لهذا الفن الروائي. وقد تحدث اليه ناشر في شنغهاي ان داره تتلقى سنويا آلاف النصوص من كتاب طامحين ولكن ليس لديه الفريق والقدرة على قراءة هذه النصوص او تقييمه.

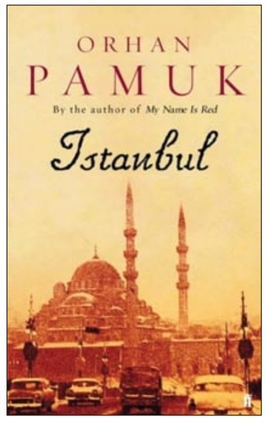

مجلة نزوى كانون الثاني ٢٠٠٧

تأملات في ادب أورهان باموق

حاز اورهان باموق على جائزة نوبل لعام ٢٠٠٦ في وقت وظروف غير منتظرة، رغم ان (ادونيس) وربما اخرين قلائل غيره قد هيأوا انفسهم لهذه الجائزة، لكن الاكاديمية السويدية منحتها الى الكاتب التركي اورهان باموق من دون اية مقدمات. ومنحت نوبل الجائزة لاول مرة عام ١٩٠١ الى كاتب فرنسي غير معروف(رينيه سولي برودوم)، لكنها لم تمنح الى روائي فرنسي مهم مثل (مارسيل بروست).

غفور صالح عبدالله

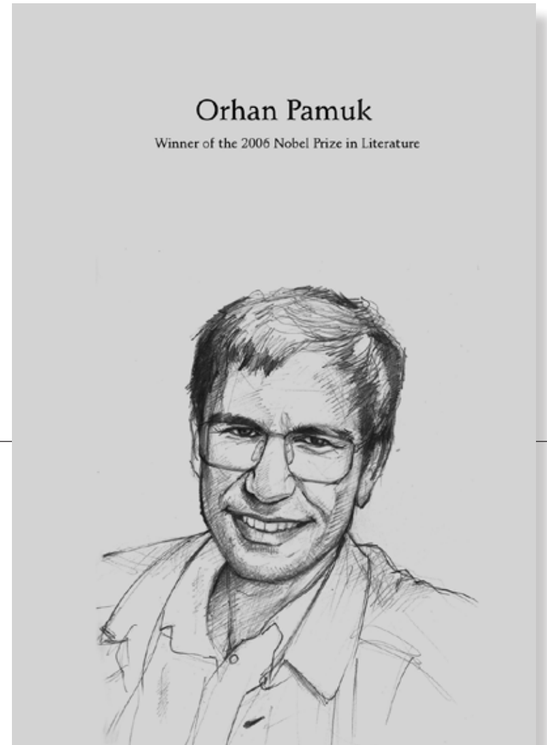

صاحب احدى الروائع العالمية مثل (البحث عن الزمن الضائع)، والذي رحل عام ١٩٢٢. بعد عام من حصول مواطنه على هذه الجائزة عام ١٩٢١ (اناتول فرانس). كذلك لم تمنح الجائزة لصاحب الرواية الرائعة مثل (الساعة الخامسة والعشرون) كونستانتان جورجيو، والذي يدين بقوة في هذه الرائعة للمعسكرين الغربي والشرقي اثناء الحرب الكونية الثانية. او مبدع مثل (نيكوس كازانتزاكي) والذي وافاته المنية عام ١٩٥٧، مبدع روائع مثل: زوربا، الاخوة الاعداء، المسيح يصلب من جديد، الوسوسة الاخيرة للمسيح، كابتن ميخائيل، رسالة الى غريكو..لايتكرمون عليه بهذه الجائزة! لكن يمنح لـ(بوريس باسترناك) على روايته (الدكتور زيفاكو)، والذي يعتبرها الشاعر الداغستاني (رسول حمزاتوف) رواية فاشلة في عموم الادب الروسي.ومنحت له هذه الجائزة لانها تنتقد النظام السوفيتي انذاك.وقبل موت (كازانتزاكي) منحت هذه الجائزة الى روائي اسباني هو (خوان رامون خمينيز). كذالك لم يحصل كاتب قرغيزي مبدع مثل (جنكيز ايتماتوف) على هذه الجائزة. صاحب روايات مهمة مثل: المعلم الاول، الجميلة، الغرانيق المبكرة، السفينة البيضاء، الكلب الابلق الراكض علي حافة البحر، يوم اطول من قرن. قليل من كتاب اليسار حصلوا على هذه الجائزة، بل الاكثرية الحائزين كانوا من دون انتماء سياسي، او كانوا يمينيين وعملوا لخدمة الغرب.والا لماذا لم يحصل (مكسيم غوركي) صاحب رائعة (الام) والتي ترجمت الى جميع لغات العالم فضلا عن اعماله الاخرى، على هذه الجائزة!؟.

لكن الجائزة مثلا تمنح الى (سولجنستن) صاحب رواية (ارخبيلات) لانها تنتقد النظام السوفيتي، ولماذا لم تحصل مبدعة مثل (ايزابيل الليندي) عليها، وهي من رواد مدرسة الواقعية السحرية في امريكا اللاتينية، وفي مصاف (ماركيز)، ولانها امرأة يسارية وقريبة الزعيم الشيلي اليساري الشهيد(سلفادور الليندي)، والذي اغتيل اثر الانقلاب العسكري المدبر من قبل المخابرات المركزية الامريكية. وهي صاحبة اجمل روايات امريكا اللاتينية.ولماذا لم تمنح الى مبدعين عرب مثل عبدالرحمن منيف او ادونيس، لكن تمنح لكاتب مثل نجيب محفوظ لانه زار اسرائيل؟!. ومن المعلوم بأن اكثرية اعضاء هيئة منح هذه الجائزة من اللوبي اليهودي، ومن يعمل في صالح اسرائيل او المعادي للفكر اليساري يمنح له هذه الجائزة، او لماذا لا يمنح لمبدع برازيلي مثل(باولو كويلو) والذي بيع (٧٥) مليون نسخة من رواياته لحد الان، وترجمت جميعها الى اكثرية لغات العالم؟. لذا ان هذه الجائزة سياسية اكثر ماهي ابداعية، وخاصة في الادب.يبدو بأن منح هذه الجائزة الى اورهان باموق له اسبابه الخاصة، وبالاخص انتقاده للابادة الجماعية للارمن في عام ١٩١٥ من قبل الاتراك. وبعد غربنة الدولة التركية وربطها بحلف الشمال الاطلسي(ناتو)، فضلا عن دوره الكبير بتعريف التراث والادب التركيين للاوربيين. وهذا كان سببا للانفتاح في وجه الغرب. بعد ذلك ترجم معظم الادب التركي الى اللغات الاوروبية، وإلا لم يكن هناك سبب اخر لذلك، مثل قوة الادب التركي!. كذلك اليسار الاوروبي في المعسكر الاشتراكي كان له دور مؤثر لترجمة وتعريف نتاجات الادب التركي لادباء وشعراء اليساريين الاتراك بأوروبا، مثل ناظم حكمت ويشار كمال و عزيز نسين وغيرهم.وهذا كان السبب الرئيسي لتعريف الادب التركي اكثر من الادبين العربي والفارسي بأوروبا. ان باموق في جميع رواياته يتحدث عن محاولات التقرب من اوروبا، او بالاحرى اقتراب تركيا الشرقي من اوروبا.في روايته (القلعة البيضاء) و(اسمي احمر)،او يتحدث بالسلب عن تلك الجماعات في تركيا التي تعادي الغرب او الغربنة، مثل الجماعات الاسلامية الاصولية،واليساريين، والكماليين وقتلة الارمن. وهذا سبب رئيسي لكي تروج بعض الاوساط هناك لكاتب مثل باموق ليحصل على هذه الجائزة. جورج بوش لدى حضوره في مؤتمر الدول الصناعية المنعقد في تركيا، تحدث عن باموق، ككاتب يحاول التقريب بين الغرب و الشرق، وهذا يعني ما يعني، وإلا فان نتاجاته لاتصل الى نصف هامة نتاجات مبدع مثل يشار كمال الذي يكتب باللغة التركية، ولانه من اصول كردية وذو توجه يساري لاتمنح له هذه الجائزة، علما انه مرشح لهذه الجائزة منذ اكثر من ربع قرن. كثير من النقاد يطلقون عليه لقب(اسطورة شعوب تركيا)، ان عزيز نسين ترجم جميع قصصه ورواياته ومسرحياته الى جميع لغات العالم، بحيث لم يسبقه اي كاتب عالمي اخر، مع هذا لم يحصل على هذه الجائزة. وان قليل من القراء كانوا يعرفون باموق قبل حصوله على هذه الجائزة، وانا متأكد بأن هناك عشرات الروايات المهمة تترك لديك تأثير ما، ولاتنساها بسهولة، لكن روايات باموق لولا الدعاية الغربية والعربية الى حدما، لم تستطع ان تحقق ما حققته من انتشار، ماعدا انها تتناول بعض المسائل الانية الخاصة بتركيا، مثل نمو الاصولية الاسلامية وصراعها مع العلمانية التركية، والتي استطاع باموق ان يتعامل معها بذكاء.وكذلك مسألة ارتداء الحجاب، وظاهرة انتحار الفتيات والنساء، وهذه الظاهرة منتشرة في المجتمعات الاسلامية المتخلفة، والشرقية ايضا. فقد تطرقت الكاتبة البنغالية (تسليمة نسرين) سابقا الى هذه الظاهرة في روايتها(العار)، وكذلك الصراع بين الاتاتوركين و القوميين الكُرد، ومؤيدي الحزب العمال الكردستاني. لكن منْ منا لايجد نفسه في ابطال رواية (بيت الارواح) لايزابيل الليندي و رواياتها الاخرى؟. وأي فرد شرق متوسطي لايجد نفسه في اعمال يشار كمال و عزيز نسين؟.

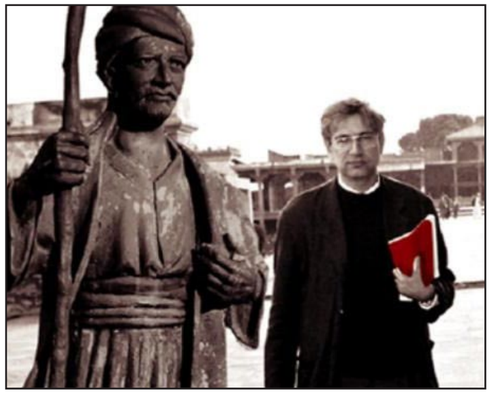

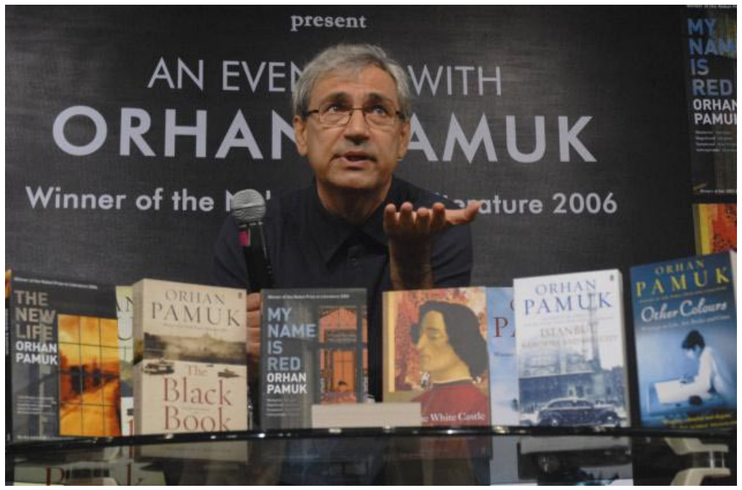

رغم أن باموق يشير الى عملية الابادة الجماعية للارمن بصورة خجولة في هذه الرواية، مثل اشارته الى اطلال بنايات ارمنية في البلدة و عمارات قديمة وخربة، او عداء الكماليين تجاه مقاتلي حزب العمال الكردستاني. لكن هناك كثير من الإشارات السلبية و النعوتات السيئة الى الكُرد، في مكان ما من الرواية يتحدث(سردار بك) عن مختار بك الذي هو شخص كردي ومنتم الى حزب الرفاه الاسلامي، َويقول:(قليل العقل نوعا ما، لكنه كردي، وان الكُرد يشكلون اربعين بالمائة من سكان المدينة، لذا يفوز حزب الله في الانتخابات).او شخصية (ازرق) شخص كردي واسلامي متشدد على شاكلة ابو مصعب الزرقاوي، وحسب الكاتب بأن (ازرق) كردي من أهالي دياربكر،ومدينة دياربكر مدينة كردستانية صرفة، واكثريتها مؤيدة للحزب العمال الكردستاني، أو للحزب المجتمع الديمقراطي الكردي. وليس من المعقول أن يظهر بينهم هكذا شخص اسلامي متشدد، والذي يشرف على جميع العمليات الارهابية في تركيا!. أو شخصية سلبية مثل الشيخ سعادالدين افندي،انه رجل كردي جبلي، و له في مدينة القارس تكية لتضليل الناس، ويبدو بأنه من عملاء المخابرات التركية(ميت)، ويزرعون في ديوانيته اللاقطات لكشف اعداء الدولة. كذلك تعريف ثوار شمال كردستان بأرهابيين، أو تعريف مناضليين الكُرد كجبناء وغوغاء. أو آفة انتحار الفتيات و النساء على اساس انها انتقلت من مدينة (باطمان) الكردية. رغم انه يشير في بعض المواقع الى(حزب العمال الكردستاني) بصورة خجولة، كما يقول المثل(قول حق يراد به باطل). أو باموق يقول على لسان (سردار بك):(نحن نعتبر الكُرد قبيلة وعشيرة، في الماضي لم يكونوا يشعرون بكرديتهم). وهذا افتراء سافر وبعيد عن الحقيقة، اليست عشرات الثورات الكردية في تركيا والتي حدثت ضد الدولة العثمانية وفي العهد الجمهوري، ألم تكن تعبيرا صادقا عن الروح الكردية وتحدي صارخ لحصول الكرد في شمال كردستان على حقوقه القومية المشروعة؟. اويتحدث عن شاب كردي بصورة غير مباشرة بأنه ارهابي:(فرهاد الذي كان من اسعد المنفيين السياسيين في المانيا،والذي التحق بصفوف الحزب العمال الكردستاني، وكان يقوم بمهاجمة القنصليات و مكاتب الخطوط الجوية التركية في المانيا بالمتفجرات وقنابل مولوتوف). يقال بأن باموق بعدما حصل على هذه الجائزة حمل دولاراته وهرب الى اوروبا خوفا من اغتياله من لدن الجماعات الاسلامية وليس خوفا من الاتاتوركجيين!.ومن الملاحظ بأن روايات باموق تأخذ جانبا ضيقا من الحياة في تركيا، مثل رواية(اسمي احمر)

والتي هي رواية تأريخية وتهتم بالنقوش و الرسوم العثمانية، وأن لجوء باموق في هذه الرواية الى الفن التشكيلي يريد انقاذ نفسه من تناول الصراعات الصعبة و المعاصرة لشعوب تركيا، لذا اختار حيزا صغيرا من تركيا مثل اسطنبول والقارس، لكن اهمل مساحات شاسعة من تركيا الفقيرة، مثل مناطق اناضول وجنوب شرق تركيا، إذ تنشأ في مثل هذه المناطق الاساطير و الملاحم او نشأت. ويتناول شريحة على اساس انها حضارية، علما انها غير حضارية، مثل الكماليين والاسلاميين، لكن (يشار كمال) الذي لم يمنحوه هذه الجائزة، رغم ترشحه لها لاكثر من ربع قرن، ينتزع الحياة من اعماق جوكوراوا، ويتحدث عن مآسي الفلاحين من الاتراك و الكُرد، وكيف يئنون تحت عبأ الحياة القاسية. على سبيل المثال في قصته (القيظ الاصفر) و (السماء من النحاس والارض من الحديد)، أو كيف يتحدث عن صراع الفلاحين في اناضول، في ملحمته الرائعة (محمد الناحل).وعن الحياة الاسطورية لسكان جبال اغري داغ في رائعتيه (اسطورة اغري داغ) و (كوير اوغلو). ويتناول (عزيز نسين) زيف الحياة في المجتمع البرجوازي الاقطاعي التركي في العهد الجمهوري، والاضطهاد الطبقي في قصصه ورواياته و مسرحياته بشكل فكاهي وكوميدي،وذلك في المدن التركية مثل اسطنبول و انقرة، من خلال نتاجاته، (الابله) و (ابراهيم زبوك) وقصصه مثل (السماد) و من مسرحياته(وحش طوروس). الملاحظ انه ليس هناك في رواية الثلج اي بطل دراماتيكي او قصة دراماتيكية تجلب الانتباه لا يمكن نسيانها بسهولة. ان شخصيات الرواية هي شخصيات عادية في المجتمع التركي، مثل البكوات الذين هم من بقايا العثمانيين، وشخصية (كا) شخص صحفي وشاعر، وهو من عائلة ثرية من اسطنبول، او كرد الاسلاميين و شيوخ اصحاب التكاية ومشعوذين، او مقاتلي حزب العمال الكردستاني. لم يستخدم في هذه الرواية صراعا في شكل فني، أو لم يعرض بعض شخصيات رمزية. ليس هناك بطل خاص في هذه الرواية، لكي يكون ممثل حقيقي لجماعة او شريحة معينة،(كا) هو صحفي في الحقيقة، قدم الى مدينة القارس ويستعرض الاحداث كريبورتاج صحفي، وليس كفنان او كروائي. باموق لم يخلق شخصية مثل (الابله) لعزيز نسين، او مثل (محمد الناحل) ليشار كمال، كي تكون ممثلا لطبقات وشرائح معروفة في المجتمع التركي، سوى هناك اشخاص غير مؤثرين ممثلين للعلمانيين و الاسلاميين، مثل سردار بك وتورغوت بك و مختار بك في حزب الرفاه و شخصية (ازرق).كلمة(كا) هو حرفين الاولين لاسم كريم الاقوش). هناك كثير من الروايات بعناوين الثلج، مثل رواية (ماكسينس فيرمين) الفرنسي بأسم (الثلج)، او رواية(ثلوج كليمانجارو) لارنست همنغواي، كذلك اكثرية قصص (جيخوف) وجاك لندن، يحتل الثلج حيزا كبيرا من اعمالهم، اذ مناخ موطنهم هكذا، والثلج في رواية باموق هذه، هو ذلك الثلج الذي يهب من سيبريا و، يغطي المناطق الثلجية من تركيا، والتي تعتبر القارس عمقها، ربما اراد باموق مثل(فرمين) أن يقوم بجولة داخل اللون الابيض، وفي تصوري ليس هناك اية دلالة للثلج في هذه الرواية!.

وهذه الرواية مقسمة الى (٤٤) فصل وكل فصل له عنوان مستقل، ويعبر عن مضمون الفصل. وهذه العناوين في الاغلب هي عناوين صحفية، ولولا هذه العناوين الفرعية لكانت الرواية اكثر وداعة!.كريم الاقوش (كا) هارب من الملاحقة السياسية في بلده تركيا، كان رجلا شيوعيا وشاعرا، ولجأ الى المانيا وهناك مارس عدة اعمال لكسب قوته اليومي، ويعود الى اسطنبول بعد غياب اثني عشر عاما، وتقوم جريدة (جمهوريت) التركية هناك بتكليفه لتغطية الانتخابات البلدية في مدينة القارس الحدودية، والكتابة عن ظاهرة انتحار الفتيات والنسوة هناك.ويقول لنا الراوي أو الروائي:(لا اريد ان اخدعكم، انا صديق قديم لـ(كا)، و قبل أن أبدأ بسرد هذه السيرة، أعرف ماذا سيحصل في القارس). يبدو بأن باموق قد حدد منذ البداية مقدمة ونهاية احداث روايته!. وليس مثل اكثرية الروائيين لايعرفون كيف تنتهي قصص رواياتهم.

ويتجه بهدف الكتابة عن الانتخابات البلدية الى القارس وعن ظاهرة انتحار الفتيات. وتبدأ رحلته من اسطنبول ثم ارضروم من هناك الى مدينة القارس.وقد غطى اطراف مترامية من المناطق التي يمر بها. كذلك لـ(حنا مينا) رواية بعنوان (الثلج يأتي من النافذة) وتتشابه مع رواية باموق من ناحية إثارة الاحداث، مثل الهروب من مواجهة العمل السياسي واللجوء الى المنافي، والنضال في المنفى والبعد عن الوطن، والغربة وعلاقة الشخص المثقف بالفرد العادي والعامل، كذلك موضوعة المرأةوالموقف تجاهها، كذلك الصراع الطبقي. ورواية (حنا مينا) ايضا مليئة بالاحداث وتغني للذين يقطعون الطرق الطويلة. وبطله ايضا في غرفته محاط بالثلج والبرودة، وهو بدوره عاد من المنفى بعد سنوات الى دمشق.(كا) ينزل في فندق(الثلج بالاس)، ويتغير مشهد المدينة من البياض الى الاوحال والتلوث، وفقد الثلج نصاعته، ويرى المقاهي المليئة بعمال الكُرد العاطلين عن العمل.وينظر الناس اليه بعين صحفي من اسطنبول، وهناك يقوم سردار بك ممثل الاتاتوركجيين وصاحب صحيفة(مدينة سرحد) والتي تباع منها فقط مائة وعشرين نسخة بتقديم (كا) الى القارسيين. وهناك يعرف نفسه بدائرة الشرطة وحسب تقاليد الدولة الشمولية. وقبل ان يصل الى المدينة يُقتل رئيس بلدية القارس، وحسب كلام (ازرق) بأنه قتل على ايد احد اصحاب العربات من الكرد. لان رئيس البلدية منع استخدام العربات في المدينة، ويفهمه قاسم بك بأن المدينة في منطقة آمنة و قام بطرد الارهابيين الانفصاليين من المدينة، بالطبع هنا يقصد حزب العمال الكردستاني. لكن غير مطمئن ماذا سيحدث او ما لايحدث، ويسردون له هناك عدة حوادث انتحار النساء والفتيات، ويعتقدون بأن هذه الافة انتقلت من مدينة كردية مثل (باطمان) الى هناك. وجدير بالاشارة بأن باموق مثل (علاء اسواني) صاحب رواية (عمارة يعقوبيان)، يجعل من عمارة قديمة مكانا لجميع احداث الرواية وابطال، والذي هو فندق (الثلج بالاس)، وصاحبه تورغوت بك و إبنتيه(ايبك وقديفة). ويعود عمر تلك العمارة الى مئة وعشرة عاما، اي ربط بين تأريخين القديم والحديث، العثماني او الجمهوري، والذي كان مكان الاستراحة لبروفيسور روسي وعاشق للغربنة، كذلك لتاجر مواشي ارمني، او ملجأ رومي للايتام. كانت (ايبك) في السابق في اسطنبول في الجامعة مع (كا) ويتعرفان على بعضهما البعض ويرتبطان بعلاقة الحب، لكن يبدو بعد هروب(كا) الى اوروبا بسبب الملاحقة السياسية تلغى هذه العلاقة. ثم تتزوج (ايبك) برجل كردي شيوعي، ثم يصبح اسلاميا، الذي هو(مختار بك).و يطلب من (ايبك) ان ترتدي الحجاب، وهي بدورها ترفض هذا الطلب، مما يؤدي الى انفصالهما. وهنا يبين الصراع بين العلمانية والسلفية الاسلامية، اللذين لايتنازل احدهما للاخر.

ويقول باموق علي لسان سردار بك مايلي:(نحن نعتبر الكُرد عشيرة او قبيلة، ولم يتعرفوا في السابق على هويتهم القومية). هذا بحد ذاته محض افتراء، اذن كيف قامت عشرات الثورات ضد الاتراك من قبل الكُرد، في العهدين العثماني والجمهوري، اذا لم يعرفوا هويتهم القومية وقاوموا في سبيل الحصول على الحقوق القومية لهم؟.وكذلك يعتبر باموق تركمان في تركيا قومية خاصة بحد ذاتها، ولا تنتمي الى الاتراك كما يدعي بعض التركمان.او يتحدث عن الاحزاب الاسلامية كالاحزاب الاسلامية عندنا يذهبون الى حيث الاحياء الفقيرة ويقومون بتوزيع المساعدات على الفقراء لكسبهم ولكي يمنحوا اصواتهم لحزب الله.او يتجهون نحو الشباب العاطل عن العمل والفقراء لكسب ودهم وجرهم الى احزابهم. تتحول الرواية في اكثر الفقرات الى خطاب سياسي ويتحدث عن نشوء الاسلام السياسي. كذلك يشير بإشارات خجولة الى مأساة الارمن على ايدي الاتراك في عام ١٩١٥، وذلك عن طريق ذكر متحف المدينة ويقول:(القسم الخاص بالابادة الجماعية للارمن في المتحف- بعض الزائرين كانوا يتصورون في البداية، بأن هذا المكان هو المكان الذي نفذت فيه تلك المذبحة بحق الارمن من قبل الاتراك- لكن بعد ذلك فهموا عكس ذلك). في هذه الرواية يقوم باموق بعرض سيرته الذاتية بصورة مسهبة نوعا ما في المانيا، واالتي تشمل عشرات الصفحات من الرواية، حين يتحدث عن الشعر وشاعريته هو. وفي رأي ان هذه الصفحات وجودها كعدمها. رغم ان الحديث عن الشعروشاعريته احتل مساحة كثيرة من الرواية، كثير من شخصيات الرواية يكتبون الشعر، حتى الحال يصل الى شخص ارهابي مثل(ازرق)، وانا في هذه الرواية عرفت بأن كمال اتاتورك كان يكتب شعرا. او في الفصل الخامس، هناك حوار بين شخص مدرس علماني مثل (نوري يلماز) مدير معهد التربية، الذي يمنع الفتيات من الدخول الى المعهد وهن يرتدين الحجاب، وبين شاب اسلامي متشدد (واحد سويزمه) في محل للحلويات ثم يقتله. بلاشك هذه السجالات تحدث يوميا في العالم الاسلامي بين الشبان الاسلاميين المتشددين و العلمانيين، لاشك سجالات سمجة.علما بأن كلا الجانبين لايملكان المنطق القوي لسم المواضيع المختلف عليها. الشبان الاسلاميين مقتنعون ولا يؤمنون بذلك المنطق الذي يقول(الدين لله والوطن للجميع)،لكنهم يريدون حسب منطقهم ان يكون الدين للجميع والوطن لله!. وهذا غير مقبول ابدا حتى في بلدانهم الاسلامية،رغم ان الجماعات الاسلامية اينما كانوا هذا هو منطقهم، حتى عندنا ايضا. باموق يريد هنا ان يقول بأن الدولة التركية هي دولة توتاليتارية،و يمثلها سردار بك وز.دميركول و سوناي زايم الذي ارتد على الفكر الماركسي واصبح اتاتوركيا، والاسلاميون هم ارهابيون، وممثلهم (ازرق) الذي ذهب الى البوسنة وغروزني والشيشان واصيب هناك بجروح. كانوا يقولون انه جاء الى القارس في سبيل المحافظة على جمهور و اسراراشخاص تابعين لجماعة اسلامية كردية متشددة. او واحد سويزمه ونجيب و الدكتور فاضل و الاكراد اما قبليون او اسلاميين وحتى الحزب العمال الكردستاني كلهم ارهابيون. وشخصية اخرى في هذه الرواية هو (مختار بك) وهو كردي كان مع (كا) طالبا في جامعة اسطنبول،وكانا ينتميان الى الحزب الشيوعي، وكان مختار شاعرا فاشلا وزوج (ايبك)، ولانها لم ترتدي الحجاب انفصلت عن زوجها،لان مختار تحول الى شخص اسلامي، أو عندما يكون مع (كا) يتذكران بعض من اصدقائهما، ومنهم (فرهاد) ذلك الشاب الذي يعيش في المانيا كلاجئ سياسي ويقوم بضرب القنصليات ومكاتب الخطوط الجوية التركية بقنابل مولوتوف، أو اصدقائهم الذين التحقوا بمجموعات صغيرة من العصابات، او الذين اصبحوا عملاء للاستخبارات التركية (ميت)، او بعض منهم كانوا يشتغلون في اعمال سوداء، او الذين فقدوا وقتلوا ورميت جثثهم في المجاري. عندما يأخذون (كا) الى السجن لكي يتعرف على قاتل مدير معهد التربية، عن طريق صور للاشخاص الذين اعتقلتهم الاستخبارات التركية، ويجد هنال بأنِ اكثر المعتقلين هم من الشباب او كانوا كُرداَ.

وحسب الروائي بأن (ازرق) هو شخص كردي من مدينة دياربكر، وحسب الصحافة العلمانية بأن (ازرق) شخص ملتحي وقروي وشريعتي و عدائي، يحمل في يد مسبحة في اخرى بندقية، وهذا الوصف ينطبق على (اسامة بن لادن)، نراها في الصور، او اللقاء الصحفي له مع (كا)، يشبه اللقاء الصحفي مع بن لادن من قبل (عبدالباري عطوان) في كهوف تورا بورا في افغانستان.

وفي هذا القاء يروي الكاتب الاسطورة الفارسية (رستم و سهراب) على لسان (ازرق) لـ(كا)، يبدو بأن الكاتب يريد ان يحول (ازرق) الى اسطورة للجماعات الاسلامية في تركيا. رغم انه هناك نية مبيتة في نفس (ازرق) لقتل الاب، كما يعبر عنه هو، ويقول:(احسن طريقة لقتل الاب قبل ان تتعرف عليه ان تقتله).

حبيبة أورهان باموق

كانت معظم الأخبار التي استطعت الحصول عليها عن حياة أورهان باموق الخاصة، أيام نيله جائزة نوبل، عبارة عن كلمات قليلة وجمل مبتسرة: مُطلّق، وله ابنة، طويل القامة، عصبي المزاج. تخيلت أن هذا الكاتب الذي يكاد يردد في كل رواية، الجملة نفسها أو معناها: "عش حياة أخرى، تكن نفسك"، انصرف عن إحساسه بفشل الواقع إلى صناعة واقع آخر.

منهل السراج

خلصت إلى أنه حين ألج عليه سؤال: ماشأني؟، توجه إلى الكتابة. أو حين تفاقمت عقدة إصلاح ما هو حوله والذي ربما كان عكس مايحب، لجأ إلى الكتابة. توقعت هذا، وأكملت قصة حياته في خيالي مع حكاياته التي رواها لي عبر كتبه.

ولأني بفعل القراءة أمارس فعل الكتابة، أتخلص من واقع ضيق ومضجر، قليل الحلم، قليل الحب، أو لأنني عطشة لقصة ساطعة وصادقة، غير مريضة ولامبالغة، ولامدعية، تنافس قصص الحب الراسخة في الذاكرة، والتي تحولت بالنسبة لي إلى تيرمومتر أقيس به، من دون أن أعي ذلك، قصص الحب التي أقرأ أو أشهد، أتمنى أن تكون العلاقات خالدة من دون أن تكون مسجّاً مكروراً لحب عشترة أو قيس أو روميو مثلاً. أقول من أجل كل هذا، انصرفت إلى الكتب، ورحت أفتش في تجارب الروائيين والشعراء، مضيت إلى تلك المنطقة الغامضة، التي يتحرر الفنان فيها من خجله ويعترف بحبه وخيباته وفرحه أمام قارئه، وإن لم يفعل صراحة، فالقارئ الماكر يستقرئ اعتراف كاتبه.

كنت أجد نفسي حين أمسك رواية خصوصاً لكاتب رجل، أنوي التفتيش في السرد وبين السطور عن الحبيبة التي خصصت لها تلك الرواية. وعادة يكون اهتمامي أكبر حين تكون ثقافة الكاتب مثل ثقافتنا، أو تربى تربية بلادنا. أبحث عن حبيبة البطل أو حبيبة الروائي نفسه، اسمها، بيتها، أهلها، حارتها وذوقها.. شكلها.. لكن لم يحدث، من خلال تجربتي، أن عشت أثناء القراءة قصة حب تغني فقر الحياة. لم أكن أرى تلك الحبيبة، ولاأصدق قصة الحب المروية، لكأن الحبيبات هن المرأة، كأنها كلام مجرد، أو معنى متعارف عليه وموحد ومتوافر بكثرة، وأخلص أحياناً إلى أن الحبيبة رمز متكرر عند الكاتب الرجل، يمكن أن تكونه كل امرأة. أغلق الرواية ولايعلق في رأسي إلاكلام الحب الجميل. وأبقى أنا القارئة، أحلم بعمل روائي فيه رجل يحب حبيبته، ولايحب كل النساء، صرت أرفض كلام الشعراء حين يذكرون كلمة، المرأة، كأنها موضوع أو أسطورة أو آلهة وليست إنساناً أو ذاتاً تتنوع.

أما في كتابات بعض النساء، أيضاً ومن خلال تجربتي، كنت أشعر أن الأمر يختلف، لهفة الكاتبة إلى حبيبها، تتضح من الصفحات الأولى، ويمكن طبعاً أن تكون قصة الكاتبة الشخصية والذاتية، ليس هذا هو المهم، المهم أني استطعت أن أعرف حكاية هذا الرجل وهذه الفتاة الذي أحبته، رجل اسمه فلان يفضل من الطعام كذا، ومن الملابس كذا، عاداته كذا وكذا.. كنت أحس، أنه حبيبها الخاص بها، فارسها، رجل واضح المعالم، أو صعلوك خادم في بلاط. أتعاطف معها وأعيش قصتها وأفهم لهفتها، كأنها رفيقة المدرسة التي تحكي عن حبها للشاب الذي نراه يقف عند الزاوية ينتظر بقلب يخفق.

أما الكتاب الرجال، فحين أسمعهم يتحدثون عن قدسية المرأة وجمالها، عن احترامهم لشخصها، عن حبهم لها. كنت أنفر من هذا التعميم، من هي هذه المرأة؟ لم أكن أستطيع أن أتخيلها، أو أراها. فهم يصفون المرأة بالعام، ولايصفون الحبيبة. وأستنتج متعجلة: ربما حين يكتبون ويتخيلون، يشتهون تقاسيم جسد، وليس طبيعة إنسانية للحبيبة، ربما يشتهون لكن لايخلقون. يحبون المرأة، لغتهم.

وخلصت إلى أن المرأة تحب حبيبها، والرجل يحب المرأة. وليستني هذه الفكرة وصارت كرؤية مسبقة أدخل بها كل عمل أدبي، الحس سبابتي وإبهامي وأفتش عما يثبت الفكرة.

إلى أن قرأت حب بطل أورهان باموق للحبيبة. وجدت أنني منذ الصفحات الأولى للرواية أنسى جنس الكاتب وأنسى لؤم الفكرة وأنغمس مع الحكاية.

في الكتاب الأسود، وتحت عنوان "تفاصيل" يأتي إحساس غالب بالفقد هائلاً، جارحاً له ولقارئه/شاهده، تكاد تستنشق معه رائحة مبيد الصراصير الذي رشته رؤيا قبل خروجها، الجريدة مجلكعة، وقد فكرت لاتشبه شهوة الذكور، فجة ورعناء.

قصة الحب عادية، لم يحمّلها عبء حرب بين طبقات اجتماعية، فحبيبته ليست من طبقة أعلى أو أدنى، ليست قديسة ولاعاهرة، ليست صحفية ممتازة ولا كاتبة ذكية، ليست أميرة ولاخادمة مقهورة. الحبيبة هي حبيبة البطل وكفى، والحكاية حكايته وليست فكرة أو قضية تحمل أسلحة وتنوي قتال الدين أو الأعراف أو السياسة.

صرت في كل قراءة أعرف المرأة أكثر، شكورة وجانان ورؤيا.. امرأة حاضرة بقوة. اسمها فلانة ابنة فلانة وخالتها فلانة. أغلق الكتاب، ولاأنسى قصة الحب شديدة الصدق شديدة البساطة.

ربما لأن بطله يعشق كما تعشق النساء، يرجو، ويحلم كثيراً. ويبتهل!

حب أكابري، على حد قول أمي. أو لأن الكاتب نجح في خلق حياة أخرى، كما يسعى دائما، واقع آخر يجعل حتى القارئ قليل البراءة يتحول إلى طفلة تصدق الحكاية، وتنتظر قبل النوم الجنية التي ستزينها وتأخذها لحفل الأمير.

جعلني هذا الكاتب أهرع إلى مواقع الانترنيت كي أبحث عن صورته وأسأل عن أخباره الشخصية، وأستفسر مثل معجبة بنجم. إن كانت حبيبته المفترضة تعيش معه كل الوقت وتنعم بهذا الحب، تذكرت أختي التي كانت معجبة بفرانكو كاسباري، وتخجل في هذا، فكانت تخفي مجلة "الموعد" بين طيات مجلة "العربي" عن عيني أبيها الذي كان، يجلب لنا كتبا جادة جداً على أعمارنا في ذلك الحين. كانت تفعل هذا وتذوب..

وربما يصل اهتمامك أنت القارئة المستلبة بإرادتك، النهمة لحكاية الحب، أن تصدقي خيال الكاتب أثناء اندماجك بالقراءة وتحسين بالغيرة والرغبة بسرقة ذلك الحبيب الذي يتباهى بحبيبته لأنها حبيبته، تبحثين عن ميزات هذه الحبيبة، اللعنة، ماذا بها رؤيا حتى يحبها غالب كل هذا الحب؟ يجيبك الكاتب: "رؤيا تحب العلكة، والروايات البوليسية، وتهز قدمها بعصبية حين ترفض أمراً ما.."

بم يتباهى إذن؟ يتباهى بأنه يحب.

ويتباهى بأنه يضع معطفها عليها ويمسكها من يدها كي يقطعان الشارع ذاهبين إلى السينما.

ربما لأن أورهان باموق، يتحدث عن الحب، كما تفعل المرأة، أو كما تحلم وتأمل، يخبرنا خبريات صغيرة، أقرب إلى النميمة، حلوة ومسلية، كأن جارتي المقربة، قرعت باب بيتي ودخلت لتشرب قهوة، أستقبلها بثوب البيت، وبلا تسريحة. هكذا قرأت كاتب "الحياة الجديدة". و"اسمي أحمر" و"الكتاب الأسود". قرأته بلا تهيئة ولا تركيز ولاتقطيب، ولا وجع جبين. في البداية قلت، ربما سبب إحساسي بقربه، هو أن بيتهم يشبه بيتنا، أو أن دينه من ديننا، لكن حين نال نوبل، عرفت أنه كان قريباً من الجميع، وأن مدينته كانت تشبه كل المدن. وحياته مثل حياة كل من قرأه: انكسارات وأحلام، أحزان وأفراح، وجدان إنساني حقيقي.

حب بطله عشق، استسلام لحالة التساؤل والتردد، كأنه يحسن الإصغاء لقارئه، ربما إصغاؤه هذا ماجعله يفوز بقلب قارئه.

أو أن أورهان باموق نجح في خلق حالة حب حقيقية، قناعته أن العشق:

"تقاسم علكة، والعشق استسلام، العشق نظر روح محطمة في المرآة، العشق هو القلب النبيل، العشق عدم معرفة، العشق موضوع في الأغاني، العشق نافع للبشرة. العشق هو عدم قول: أنا نادم في أي زمن"

بالكلمات المتقاطعة وحاولت أن تحلها، دخنت سيجارتين في غرفة النوم وأربع في الصالون. وفرشاة الشعر ذات المرآة وشحاط.. ارتدت معطفها الذي بلون شعرها، أغلقت الأدراج، وربما رفست أبواب الخزائن، بحث في الزبالة إن كانت قد كتبت مسودة لرسالتها ام أنها اعتمدتها فور كتابتها، ١٩ كلمة.

"كانت نقن رؤيا مدفونة في مخدة من ريش الطير"

"الخوف من الأشياء الرائعة التي تجري في رأسها"

"هذا ما تلبسه رؤيا وتفكر به"..

ارتدت رؤيا معطفا وخرجا معا، وقطعا الشارع... ويصف كيف وضع ذراعه في ذراعها كالقروي.

يتذكر بحسرة كما تفعل النساء، حبيبته دائماً بعيدة أو مع غيره، وهو يحاول استعادتها صابراً، كأن الأمر من حقها. لهفته إليها

عشاء مع أورهان باموق

نجم والي

كان يجب أن نلتقي أولاً قبل ٣ سنوات، على هامش صدور الترجمة الألمانية لرواياته "ثلج" في قراءة مشتركة نظمتها "الحدادة القديمة"، مؤسسة ثقافية عريقة في فيينا، لكن اللقاء فشل، بسبب تهديدات بالقتل تلقاها أورهان باموق آنذاك، كان علي أن أنتظر حتى خريف العام الثاني، لكي نتعرف على بعضنا في حفل عشاء نظمته "هانزير" دار نشرنا المشتركة على هامش حصوله على جائزة السلام التي يمنحها معرض فرانكفورت للكتاب سنوياً. أتذكر، أنني قلت له، "ها أنت سبقت بلدك تركيا بالدخول للإتحاد الأوروبي"، فأجابني ضاحكاً، "كالعادة الأدب يسبق الحياة".

في ذلك الوقت، حضر باموق وحضر معه حرس شخصي سدّ باب الصالة، كان عليه التعود على المشهد، هو الذي عرف التنقل اليومي في شوارع أسطنبول، يقطع يوميا طريقه من البيت حتى ورشة عمله التي تطل على مضيق البوسفور، التعود على ذلك، قال في حينه،

لا يدري في الحقيقة كيف سيقضي أيامه الجديدة، خصوصاً أن محكمة إنتظرته عند عودته لإسطنبول، التهمة "إهانة القومية التركية"، حديثه بدا مقتضباً في تلك الأيام، ليس لأنه كان يعاين الساعة من حين لآخر، لأن رجال الأمن وضعوا له الخطة التي عليه السير عليها، بل لأن عليه حساب كل كلمة تصدر منه كي لا تُستخدم ضده في المحكمة، صوره اللاحقة وهو يخرج من المحكمة ورمي شباب قوميين له بالبيض والطماطم رآها المشاهدون في مختلف العالم على شاشات التلفزيون، ومن كان يعتقد بأن التحريض بالقتل ضده سينتهي:

أولا بعد تبرئة المحكمة له، وثانيا بعد نيله جائزة النوبل للآداب عام ٢٠٠٧ سيخيب ظنه، على العكس، فما بدا أمراً يمكن أن يجد حله في يوم، تحول إلى تهديد أبدي، طالما أن أيدي أنصار أتاتورك المتعصبين ما تزال تشرف على خلط الأوراق في تركيا، وطالما أن الأيدي "السود" هذه ما تزال تسيطر على جهاز الشرطة والجيش والأمن هناك. حادثة إغتيال الصحفي الأرمني هرانت دينك أرتنا إلى أي مدى يذهب القوميون في وحشيتهم، وأن كلمات التهديد التي يطلقونها، ليست خراطيش فارغة، وأن شهرة ما لن تنقذ الهدف الذي يسعون إلى تصفيته. الرسالة وصلت إلى باموق، وقبل أن يتسلم جائزة النوبل من يدي الملك السويدي غوستاف، قرر البقاء في منفاه الإختياري "نيويورك" لبعض الوقت.

ومن يعرف باموق، يدرك أنه سمكة لا تستطيع العيش خارج مياه أسطنبول، ذلك ما جعله يعود من أستوكهولم مباشرة إلى اسطنبول، لكن دون قرع طبول وحفل إستقبال، رئيسا الدولة التركية والحكومة وقفا موقف المتفرج آنذاك، كأنهما أرادا المشاركة في حفلة تنكر البلاد لإبنها.

لكن منح الأكاديمية السويدية جائزة نوبل لأورهان باموق أعاد النكهة الطيبة والأصيلة لجائزة نوبل، وجعل أطرافا عديدة من محبيّ الأدب يرفعون قبعاتهم أنحناءً لشيوخ الأكاديمية السويدية. لقد أخذوا أدب باموق بشكل جدي، مثلما أخذوا مواقفه السياسية وتصريحاته بالدفاع عن الحرية، حرية القول، وكسر المحرم، بنفس المستوى من الجدية. أغلبية أولئك الذين فازوا بجائزة نوبل، وباموق هو الرقم ٩٩، كانت لهم معاركهم الحياتية من أجل الحرية، الحرية بمعناها الوجودي العام، دون الدخول في تعاريف سهلة، مثل يسار ويمين، شيخ الرواية فوكنر، قاد معركة تحرير العبيد في جنوب أميركا، الأميركي أرنست همنغواي كافح بلا كلل خلال الحرب الأهلية الأسبانية إلى جانب الجمهوريين، الغواتيمالي الهندي الأحمر الأصل، أستورياس كان يعيش في المنفى، الياباني كينزابورو أوي كان أكثر نقاد اليابان المحافظة، أتهم مراراً بتلطيخه "العلم"، الروائيون الأوروبيون لهم معاركهم يضاً، اما روائيو أوروبا الشرقية فقد قادوا معركة شرسة ضد ديكتاتوريات شيوعية لا ترحم، سولجنستين فضح الإرهاب الشيوعي "الغولاج"، أما شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ فقد خرق محرماً عربياً كبيراً، عندما دعم معاهدة كامب ديفيد للسلام.

أورهان باموق يعرف ثمن الشهرة، ولو خُير بين الشهرة والتحرك بحرية عبر شوارع وأزقة وأسواق أسطنبول، لكان أختار الأمر الثاني. لكن متى إختار أصحاب المشاريع الروائية الكبيرة قدرهم، وفي حالة باموق، كلما مدّ رأسه من نافذة مشغله، حتى إلتمع البسفور أمامه، أنه ليس مضيقاً مائياً، يقول باموق، أنه ذاكرة المدينة، أنه خلاصة أسطنبول، بتاريخها وحاضرها، بطبقاتها وطوائفها، بصعودها وأفولها، من المستحيل بالنسبة إليه أن يرسم المدينة بلون واحد، كما يريد لها المتعصبون، كلا، أسطنبول لا يمكن إلا أن تأتي كما هي، كوزموبوليتية، حاضنة لكل الطوائف التي عاشت فيها حتى اليوم بسلام.

في حفل العشاء الأخير الذي جمعنا في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، بدا باموق أكثر إنطلاقاً في حديثه من لقائنا قبل عامين. كان يضحك ويعلق بوجه بشوش، بل كان أكثر صراحة في التصريحات التي يطلقها، أكثر إجهاراً في شكواه من التضييق على حرية الرأي في تركيا، بل حتى في شكواه من عنصرية الناشرين الاتراك، قال لي، وهو يقلب كتابي المترجم "صورة يوسف" بين يديه، "يجب أن تترجم كتبك إلى اللغة التركية"، لكنه وقبل أن يسمع إجابة مني، علق: "أعرف أنه أمر صعب، الناشرون الأتراك يعتقدون بأن ليس هناك أدباً في البلدان العربية أو في الهند أو في باكستان، والمضحك أنهم يشكون، أن الغرب لا يعترف بالكتب التي ينشرونها لمؤلفين أتراك، أغبياء!"، يعلق ويضحك، برغم أن الحرس الشخصي الذي سدّ الباب زاد عددهم عما قبل، وفقط عندما رأيت الكاتب الإيطالي روبيرتو سافيانو، زميلنا في دار النشر نفسها يقترب وينضم إلى جلستنا، عرفت سبب ضحك باموق هذه المرة، كان عدد الحرس الشخصي للإيطالي المطارد من المافيا يفوق حراسه بالعدد. "في العام القادم"، قال لي، من يدري، "ربما ستكون أنت على الدور"! اللقاء مع أورهان باموق ممتع، والعشاء معه، يظل طعمه على اللسان، لا يُنسى!

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
عدنان حسين

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
مصطفى التميمي

التصحيح اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

أسهمت دار (المدى) في التعريف بكتاباته قبل فوزه بنوبل

أورهان باموق حين يصبح المشهداني لون رواية!

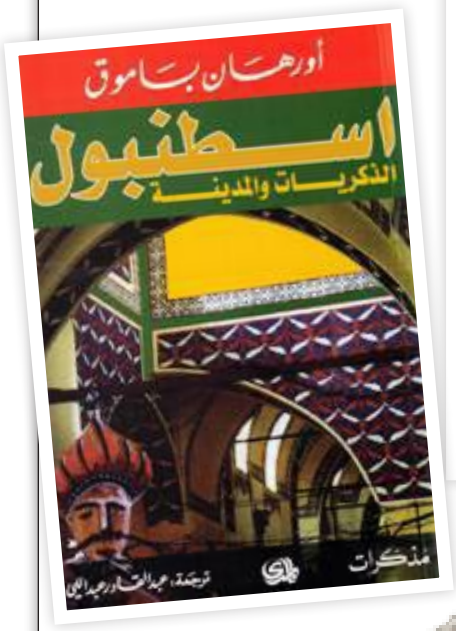

ابراهيم حاج عبدي

لم يكن اسم الروائي التركي اورهان باموق غائبا عن التوقعات المتداولة في الأوساط الأكاديمية، والثقافية التي تنتقي الأسماء المتوقعة للفوز بجائزة نوبل الآداب، بل كان مرشحا قويا برغم صغر سنه (٥٤ عاما)، قياسا إلى أعمار الفائزين بالجائزة في السنوات الماضية، وقد قطف جائزة السنة الماضية فعليا، ليكون التركي الأول الذي يفوز بهذه الجائزة القيّمة التي تمنحها الأكاديمية السويدية منذ أكثر من قرن، والتي قالت في حيثيات منحها الجائزة ان "أورهان باموق اكتشف رموزاً روحية جديدة للصراع والتشابك بين الثقافات، في معرض بحثه عن الروح الحزينة لمدينة اسطنبول التي هي مسقط رأسه".

اورهان باموق كاتب معروف للقارئ العربي، ذلك أن غالبية رواياته قد ترجمت إلى العربية، وهذه نقطة تسجل لصالح الناشرين العرب الذين رفدوا المكتبة العربية بأعمال كاتب قبل فوزه بنوبل، ولابد هنا من التنويه بالدور المهم الذي قامت به دار المدى في هذا المجال، فقد ترجمت ونشرت معظم روايات هذا الكاتب مثل: "الكتاب الأسود"، "اسمي أحمر"، و"البيت الصامت" التي كانت معدة للطبع قبل فوز باموق بالجائزة، وحين فاز تم تغيير الغلاف لتصدر الرواية ضمن سلسلة "مكتبة نوبل" التي واظبت الدار على إصدارها، ورفدت المكتبة العربية بعناوين مهمة مختارة من أعمال الفائزين بهذه الجائزة الرفيعة.

مدينة اسطنبول هي مسقط رأس باموق التي لم يغادرها سوى ثلاث سنوات عندما ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية منتصف الثمانينيات، وقد نهلت أعماله من هذه المدينة الملونة والواسعة الحاضرة دائما في رواياته، ومثلما أن هذه المدينة تتميز بطابعها المعماري الجميل، وبتشابك الثقافات، وبتداخل الحضارات والأزمنة والوجوه والرموز في أزقتها وشوارعها ومبانيها، فان أدب باموق يعد انعكاسا صادقا لتحولات هذه المدينة الاجتماعية والسياسية، ولإرثها الثقافي المتنوع الذي يسعى باموق للدفاع عنه معترفا بالتنوع العرقي والاثني والطائفي في بلاده، وكاشفا عن وقائع وأحداث تنكرها السلطة الرسمية في تركيا، فقد صرح باموق، في السنة الماضية، لصحيفة سويسرية "إن مليون ارمني و٣٠ ألف كردي قتلوا في بلادي ولا أحد يتجاسر على الاعتراف بذلك"، وهو التصريح الشهير الذي أثار. آنذاك .حفيظة الدولة التركية التي سعت إلى محاكمة الكاتب بتهمة "الإساءة إلى سمعة تركيا، والافتراء على العرق والتاريخ التركيين".

يعد باموق واحدا من أهم الروائيين المعاصرين على مستوى العالم، وقد ترجمت رواياته إلى أكثر من ثلاثين لغة، وهو الأكثر مبيعا والأغزر إنتاجا في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، واستطاع أن يعثر للرواية التركية على مكانة عالمية ناقلا عبرها الثقافة التركية وصورة تركيا الحديثة إلى القراء في مختلف أصقاع العالم، فتركيا الممزقة جغرافيا بين آسيا وأوروبا، والتي تعيش ازدواجية الدولة العلمانية. الإسلامية، وجدت صورتها الملتبسة هذه على صفحات رواية باموق، المولود في حي (طاش نيشان) في اسطنبول لعائلة تميل إلى الثقافة الفرنسية. بدأ حياته رساما، وكان يقول بأنه سيتفرغ للرسم، وانتسب إلى جامعة اسطنبول التقنية لدراسة الهندسة المعمارية ثم تحول إلى الصحافة حيث تخرج من المعهد العالي للصحافة دون أن يمارس هذه المهنة أبدا. في الرابعة والعشرين من عمره قرر أن يكون روائيا ولا شيء آخر، بعدما اقتنع بان "الكتابة تعطي معنى للحياة، لأنها الحياة".

بهذا القرار تحول باموق إلى اشهر روائي في العالم عبر أسلوبه الرشيق السهل، ولغته السلسة...ففي العام ١٩٧٩ كتب روايته "العتمة والنور"، ونال عليها جائزة صحيفة "ميلليت" للرواية، وفي العام ١٩٨٢ كتب روايته الشهيرة "جودت بك وأبناؤه" التي نال عليها جائزة "اورهان كمال للرواية". في العام ١٩٨٣ كتب رواية "البيت الصامت" (التي نحن بصددها)، ونال عليها بعد ترجمتها إلى الفرنسية جائزة "الاكتشاف الأوروبي" الفرنسية، وفي العام ١٩٨٥ م جاءت روايته "القلعة البيضاء" التي حققت له شهرة عالمية بعد ترجمتها إلى لغات عدة. وخلال وجود باموق في الولايات المتحدة حيث عمل كباحث زائر في جامعة كولومبيا، كتب روايته "الكتاب الأسود" التي تغوص في شوارع اسطنبول وأزقتها وحاراتها من خلال عيون محام باحث عن زوجته الضائعة، ونالت هذه الرواية، بدورها العديد من الجوائز. في منتصف التسعينيات نشر باموق واحدا من اكثر الكتب قراءة في الأدب التركي الحديث، وهي رواية "الحياة الجديدة" التي تتحدث عن حياة شبان جامعيين. وفي العام ١٩٩٨ نشر رواية "اسمي أحمر" ونال عليها جائزة (افضل كتاب أجنبي) الفرنسية وجوائز أخرى، وفي العام ٢٠٠٢ أصدر روايته السياسية الوحيدة "ثلج" التي تتناول النزاعات والعنف والتوترات في مدينة قارص في شرقي الأناضول بين الإسلاميين والجيش والعلمانيين والأكراد والقوميين. وكان نشر عام ١٩٩٩ كتاب "الألوان الأخرى" وهو مزيج من المقالات المنشورة والنصوص من دفاتره الشخصية، وجاء كتاب باموق الأخير الذي صدر قبل عامين بعنوان "اسطنبول" وهو عبارة عن يوميات يرصد فيها، مرة أخرى، ملامح مدينة استنبول في ما يشبه المذكرات الشخصية المرفقة بصور من طفولة وصبا الكاتب العاشق لهذه المدينة والذي يعيش فيها في المنزل نفسه الذي ولد فيه.